دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الفضائل المسيحية

بحسب الإنجيل

الأب متى المسكين

الفضائل المسيحية بحسب الإنجيل

هذا هو المفتاح السري لكل الفضائل المسيحية، لأن بمجرد أن يتجه القلب طالباً حب الرب من كل القلب ويسود هذا الحب على كل ملكات النفس ويطغى على كل الفكر ويسيطر على كل القدرات، يدخل الإنسان تحت تدبير الروح القدس ليعمل الفضائل بإرشاد وحكمة وتدبير يفوق كل ما عند الإنسان من جهد وقدرة وعزيمة، حيث يعمل الإنسان الفضائل بفرح وعمق وسهولة وقدرة تحيّر العقول، حيث تشهد الأعمال على فعل الروح القدس ببرهان وقوة وحكمة لا تُعاند، حيث يصير كل المجد لله.

وهكذا، فإن الفضائل المسيحية التي يعيشها الأتقياء في كل جيل قامت وتقوم على فعلين رئيسيين: واحد من جهة الإنسان، والآخر من جهة الله. أما فعل الإنسان المطالَب به فهو أن يكون دافع كل عمل هو حب قوي وكامل لله من كل القلب، وأما فعل الله الذي يتعهد به فهو منح قوة الروح القدس لتكميل كل فضيلة لمجد الله وملكوته!!

ثمن النسخة جنيهان

كتاب: الفضائل المسيحية بحسب الإنجيل.
المؤلف: الأب متى المسكين.
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادى النطرون.
صندوق بريد ٢٧٨٠ ــ القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٨٠٢/ ١٩٩٢
رقم الإيداع الدولي: 9 - 018 - 240 - 977

المحتويات

مقدمة

الفضائل[1] عموماً اسم شائع في جميع الأديان؛ بل إنه في السلوك الاجتماعي العادي، توجد فضائل يؤمن بها المجتمع ويتطلبها ليكون مجتمعاً بشرياً راقياً، كالأمانة والصدق والنظام والمحبة.

ولكن الذي يميِّز الفضائل المسيحية عن أية فضائل أخرى هي كونها فضائل روحية، لأنه توجد فضائل جسدية وفضائل روحية، والفضائل الجسدية هي التي يعملها الإنسان:

بدوافع جسدية،
ووسائل جسدية،
وغايات جسدية.

---

(١) مفهوم كلمة «فضيلة ἀρετή» وهي ذات صلة جذرية بالكلمة ἄριστος وتعني «ممتاز، فائق، شريف»:

١ ــ هذه الكلمة ــ خارج المسيحية في الوسط اليوناني أيام كتابة الأناجيل والرسائل ــ كانت تفيد الغنى والشهرة بجوار فضيلة الإنسان كلقب من جهة أخلاقه وسلوكه، وهي ما تقابل اليوم لقب «صاحب السمو أو الرفعة أو المعالي أو النيافة His Eminence» للدلالة على التفوق في أي ميدان متخصص سواء الحرب أو الكلام أو امتلاك قدرة أو قوة فائقة.

٢ ــ وقد بدأت الكلمة في المحيط الفلسفي اليوناني تأخذ معنى الفضيلة بمفهومها العادي، و بدأت تؤثر في الفكر اليهودي. وقد استخدمها «فيلو» الفيلسوف حيث بدأت تدخل الفكر الديني بعد ذلك بمفهوم خاص يقترب من معنى البر أو العدل أو الاستقامة. على أنها جنحت في أيام المكابيين إلى معنى الأمانة =

أولاً ـــ الدوافع الجسدية :

فالإنسان قد يمارس الفضائل إلى حد الإتقان والمبالغة، سواء الصوم أو الصلاة أو التواضع أو السجود أو حتي المحبة، **بدوافع جسدية**: مثل الغيرة والمنافسة وحب الظهور،

أو بدافع المماثلة للآخرين، حتى يكون مثل باقي المجتمع الذي يعيش فيه، أو تحت عوامل الضغط أو الإرهاب من الوالد أو المدرس أو الكاهن أو المرشد، بداعي الطاعة. كل هذه دوافع جسدية أي تنبع من الإنسان دون اقتناع روحي.

= البطولية من جهة **حفظ الإيمان في الحياة حتى الموت** (مكابيين الثاني ١٠: ٢٨).

وهكذا انتهت إلى معنى الأمانة عند الشهداء «**كموهبة إلهية**» و «**سلوك أخلاقي**» معاً.

٣ ـــ على أنه **في ترجمة العهد القديم** إلى اليونانية المدونة بالترجمة السبعينية، وكذلك **العهد الجديد** أيضاً، لم تأت هذه الكلمة لتفيد أياً من القدرات الإنسانية أو الاستحقاق البشري، وإنما جاءت لتفيد «أعمال الله في الإنسان».

وقد وردت في رسائل القديس بولس الرسول مرة واحدة في رسالة فيلبي ٤: ٨، حيث جاءت بعيداً عن المفهوم اليوناني القديم، لتفيد **سلوك الإنسان البار بالاجتهاد والسعي المتواصل في إطار حفظ الله للقلب والفكر**. وبنفس المعنى جاءت في رسالة القديس بطرس الرسول الثانية: «لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة. ولهذا عينه وأنتم باذلون كل اجتهاد قدّموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة.» (٢بط ١: ٤و٥)

الارتباط هنا أصيل وهام، بين أن نكون شركاء الطبيعة الإلهية وبين الاجتهاد في تقديم الفضائل الملتحمة بالإيمان بالمسيح، حيث فضائل الإيمان هنا هي حصيلة اجتهاد الإنسان من الشركة في الطبيعة الإلهية.

والقديس بطرس الرسول يكشف لنا بصورة واضحة ونهائية معنى الفضيلة أو الفضائل في العهد الجديد في رسالته الأولى باعتبار أن أية فضيلة يتحصل عليها الإنسان الحار بالروح نتيجة إيمانه بالمسيح، هي في الحقيقة صورة حية لفضائل المسيح نفسه: «وأما أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا **بفضائل** الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب» (١بط ٢: ٩). هنا الإخبار ـــ أي البشارة بفضائل المسيح ـــ إنما هو السلوك بالإيمان في نور المسيح.

(See: Theological Dictionary of the New Testament, Vol. I, p. 457).

ثانياً ـــ الوسائل الجسدية :

وطبيعي أن أية فضيلة يكون الدافع لممارستها دافعاً جسدياً بشرياً (ذاتياً)، فإن الوسيلة ستكون بالتالي جسدية بشرية ذاتية، أي يكون الجهد والصبر والمداومة والبذل والعزيمة كلها نابعة من الجسد والذات، فينجح الإنسان في تكميل الفضيلة بقدر جهده وصبره و بذله وعزيمته، لكن بمجرد أن يتوقف الجهد والعزيمة تتقهقر الفضيلة.

ثالثاً ـــ الغاية الجسدية :

كذلك، فإن غاية الفضيلة التي دوافعها جسدية لا بد أن تكون جسدية أيضاً، مثل أن يكون ناجحاً فيمدحه أبوه أو معلمه، أو مشهوراً وموثوقاً به لكي تزداد تجارته ويزداد ربحه. وهذا نجده مكشوفاً للغاية في استخدام الألقاب التي تنم عن الفضيلة من أجل ربح مادي (كالحاج فلان والمقدس فلان التاجر أو النائب ... إلخ)، أو يكون الإنسان قديساً لكي يمدحه الناس في المجالس والمجتمعات (غاية ذاتية بشرية). هنا تتساوى غاية التاجر الجشع الذي يستخدم الدين والعبادة والصوم والصلاة والتواضع لتزداد تجارته ويصلح حاله، بالمجاهد الناسك الذي يجاهد ويصبر ويبذل ويتمادى في فضائله لتُشاع عنه القداسة لكي يصير رئيساً أو عظيماً. فالغاية في الاثنين جسدية بشرية ذاتية، وبمجرد أن يبلغ الانسان غايته يخلع ثوب جهاده المزيف.

وتماماً كما يأخذ التاجر ربحه وأجره من ممارسة هذه الفضائل، وذلك بأن يكرمه الناس ويشترون منه فيزداد ماله الذي هو منتهى آماله، كذلك يقول الرب عن العُبَّاد والنُسَّاك عموماً الذين يصومون ويظهرون للناس صائمين ويصلُّون ويظهرون للناس مُصَلِّين، أنهم قد استوفوا أجرهم من الناس مديحاً و كرامة (مت٦: ٢و٥و١٦)، لأن هذه الغاية في الحقيقة كانت منذ البداية هي الدافع

الذي كان يمدُّهم بالقوة والحرارة والصبر.

من هنا يتضح أمامنا أنه لكي تكون الفضائل مسيحية مُطابقة لسلوك المسيح، يتحتَّم أن تكون دوافعها روحية (الله)، ووسائلها روحية (الله)، وغايتها روحية (الله)؛ وإلا يستحيل نسبتها للمسيح.

وعلينا الآن أن نكشف سر الرباط بين الفضيلة وبين الروح:

١ ـ أما **الدافع الروحي** الوحيد للفضائل المسيحية جميعاً، فيشير إليه المسيح دائماً وبلا هوادة أن يكون هو **محبة الله من كل القلب**، كالوصية القديمة: «ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا» (تث ٣٠: ٦). وهذا هو عمل الله السرِّي في القلب، وكأنما الحياة تقوم على محبة الله من كل القلب، وبدونها يكون موت. وهنا ينكشف لنا أن فضيلة حب الله هي هي بذاتها جوهر الحياة مع الله، بمعنى أن انعدامها أو توقُّفها هو هو الموت.

فبمجرد أن يظهر في أفق الإنسان حب الله، تبدأ الذات البشرية تتقهقر. وعندما يملك حب الله على كل القلب، تملك الحياة: «أمسك بالحياة الأبدية» (١تي٦: ١٢). وهنا تبدأ كل الدوافع الجسدية أن تختفي، وتموت الذات بمعنى أن لا يكون لها فعل وحركة أو طموح في ممارسة الفضيلة، إذ يكون حب الله من كل القلب قد قطع جذر الذات المنافسة والمناوئة لله منذ البدء والتي كانت السبب المباشر في البُعد واللعنة والموت.

٢ ـ أما **الوسيلة** الروحية في تتميم الفضيلة، أي التي تتم بها جهادات الفضيلة ومُستلزمات بذلها وصبرها، فهذا في الحقيقة هو أخطر ما في مفهوم الفضائل

في المسيحية، لأنه إذا أخرجنا عنصر الجسد بل عنصر البشرية عامة وعنصر الذات خاصة في ممارسة الإنسان للفضيلة، فمَنْ يكون المُمارِس الحقيقي إذاً؟ وعلى مَنْ يقع ثقل الصبر والبذل والعزيمة؟

هنا يأتي دور العنصر الأساسي في تكميل الفضيلة لتكون فضيلة مسيحية، ولتكون فضيلة غايتها النهائية هي الله أو ملكوت الله.

هذا العنصر الأساسي هو الروح القدس الذي نلناه جميعاً بالمعمودية، وهو فينا على أتم استعداد للبدء بأخذ دوره الفعال في ممارسة أية فضيلة، إذا كان الدافع فينا صحيحاً، أي روحياً صافياً من كل شوائب الجسد والذات، أي إذا كان الدافع هو حب الله من كل القلب.

هنا سر الإنجيل، هنا سر المسيح المُعلَن في القلب لكل الأتقياء الذين عبروا والذين يعبرون كل يوم، هنا يبدأ عمل الروح القدس فيمدَّ الجسد بقوة للصبر، ويمد النفس بقوة للبذل، ويمد الإرادة بقوة عزيمة تبدو لجميع الناس أنها فعلاً قوة غير عادية. هنا يستحيل على أي إنسان منتبه أن يقول أن الفضيلة هنا معمولة بالجسد والإرادة، لا من جهة كمية الصوم أو الصلاة أو التواضع أو الحب، بل من جهة نوعها لأنها تكون خالية تماماً من العنف الجسدي وصرامة الإرادة، و يتخللها هدوء وسلام ولطف فائق، لأن الجسد والذات يكونان في الحقيقة خاضعَيْن تماماً لإرادة الروح القدس، فيأتي الجهاد ممزوجاً بعنصر إلهي فائق: «والذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٤)، «سِرْ أمامي وكُنْ كاملاً.» (تك١٧: ١)

وعن قبول الروح القدس الناري وعمله فينا، يقول القديس أنبا أنطونيوس:

[ذلك الروح الناري العظيم الذي قَبِلْتُه أنا، اقبلوه أنتم أيضاً. وإذا أردتم أن تقبلوه ويسكن فيكم، قدِّموا أولاً أتعاب الجسد وتواضع القلب، وارفعوا

أفكاركم إلى السماء في الليل والنهار، واطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري وحينئذٍ يُعْطَى لكم ...

ولا تفكّروا في قلوبكم وتكونوا ذوي قلبين وتقولوا: مَنْ يقدر أن يقبل هذا؟ لا يا أولادي، لا تَدَعُوا هذه الأفكار تأتي علي قلوبكم؛ بل اطلبوا باستقامة قلب وأنتم تقبلونه، وأنا أبوكم أجتهد معكم وأطلب لأجلكم أن تقبلوه لأني عارف أنكم كاملون وقادرون على قبوله، لأن كل من يُفلّح ذاته بهذه الفلاحة (النُسْك الإنجيلي)، فإن الروح يُعْطَى له في كل جيل وإلى الأبد ...

أديموا الطلبة باجتهاد من كل قلوبكم فإنه يعطى لكم، لأن ذلك الروح يسكن في القلوب المستقيمة، وإذا قبلتموه فإنه يكشف لكم الأسرار العَلَوية وأموراً أخرى لا أستطيع أن أعبّر عنها، ويكون لكم فرحٌ سماويٌّ ليلاً ونهاراً، وتكونون في هذا الجسد كمن هو في الملكوت، ولن تعودوا تطلبون عن أنفسكم فقط بل وعن الآخرين أيضاً ...] (٢)

هذه هي سمة الفضيلة المسيحية وهي سمة وحيدة فريدة، وهي قادرة أن ترفع الفضيلة من مستوى العمل البشري إلى مستوى العمل الإلهي، من مستوى المنطق والمعقول والطاقة البشرية إلى مستوى التفوق والإعجاز: «غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله.» (لو١٨: ٢٧)

لأنه يستحيل على أي إنسان يمارس فضيلة المحبة على المستوى المسيحي أن يبلغ بها بقدراته الذاتية إلى حد محبة الأعداء. هنا إعجاز متطلبات الفضيلة في المسيحية، إذ الشرط الأساسي منها يستلزم حتماً أن تكون خالية من عنصر الجسد والذات،

---

(٢) رسائل القديس أنطونيوس ــ الرسالة الثامنة.

وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا إذا كانت معمولة بالروح القدس، حتي يستطيع الإنسان أن يبلغ بحبه هذا المستوى الفائق على الطبيعة البشرية !!

فمَنْ يستطيع أن يحب عدوَّه إلا إذا كان حُبُّ الله قد ألهاه عن حب ذاته وأنساه غرائزه الحيوانية ؟

أو مَنْ يستطيع أن يحب عدوَّه إلا اذا أخرَجَتْه ــ بل خلَّصَته ــ قوة الروح القدس من سلطان الذات والميل إلى النقمة والثأر؟

أو مَنْ يستطيع أن يحب عدوَّه إلا إذا كان ملكوت الله هو همَّه الوحيد، الذي من أجله وضع نفسه أن يحتمل كل شيء ويصبر على كل شيء ويتجاوز كل الموجعات واللطمات كل يوم، لكي يبلغ أمله المتأجج في داخله بالروح القدس مهما قابله من عثرات أو خسارات!! ... «بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح.» (في٣: ٨)

هكذا ترتفع الفضيلة في المسيحية إلى مستوى الروح القدس!!

وهكذا يظل الإنسان الذي لم يَنَلْ قوة الروح يمارس الفضيلة بدوافع ووسائل وغايات جسدية دون أن يصل قط إلى جوهر وصية المسيح، لأن وصايا المسيح لا يمكن تتميمها إلا بالروح القدس: «يُعلِّمكم كل شيء و يذكِّركم بكل ما قلته لكم ... و يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٤و١٥)؛ و «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو١٥: ٥)!!

٣ ــ أما **الهدف**؛ أي الهدف الروحي أو الغاية الروحية للفضيلة المسيحية، فهو ملكوت الله التي هي الحياة تحت سلطان الله والدخول في دائرة مُلكه وتدبيره:

«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبِرَّهُ» (مت٦: ٣٣)، حيث يعيش الإنسان بلا همٍّ ملقياً كل اتكاله على النعمة، لا يخشى شيئاً في هذا العالم ولا يشتهي شيئاً.

والشيء الوحيد الذي يجعل هدف الفضيلة في الحياة المسيحية هو ملكوت الله حقاً وفعلاً، هو أن يتخلص الإنسان من كل غريم آخر لله في القلب!! حيث يسود الروح القدس ويملك بلا نزاع!!

والآن نأتي إلى سبب وصفنا للفضائل المسيحية بكلمة **«حسب الإنجيل»**. لأنه توجد فضائل مسيحية أخذت كيانها عن طريق الممارسات النسكية الصارمة، دون أن يشرق عليها نور نعمة الروح القدس، فأوْدَت بالكثيرين إلى البعد عن الإنجيل، حيث الفضيلة هنا صارت لهم منهجاً كاملاً وغاية بحد ذاتها، فالصوم والصلاة والسجود والتواضع والبذل والسهر والصمت كانت هي مسرتهم العظمى ولذّتهم وغاية جهادهم وتعبهم وحسب، وكلما زادوها تورمت الذات وانتفخت وارتاحت. هنا ينبري الإنجيل ليصحح مسار الناسك والعابد عموماً فيقول: «طوبى للمساكين بالروح» (مت٥: ٣). هنا يضع المسيح الروح القدس بالنسبة للفضائل في مقابل كل المناهج والفنون والمهارات البشرية.

هنا يفتتح الرب سجل التطويبات الرسمي للفضائل على هذا الأساس: أن تكون **بالروح**. وواضح جداً أن الرب لم يشأ أن يجعل الفقر في حد ذاته له الطوبى بل لا بد أن يكون **بالروح** ("المسكنة" هي "الفقر" في الأصل اليوناني). لأنه قد يتخلى الإنسان عن كل أمواله و يصير فقيراً معدماً لكي يُمتَدَح كقديس. هنا الفقر أو المسكنة ليست بالروح بل بالجسد، و بالذات، ولأجل الذات معمولة!!

ولكن إن كان الإنسان تحت تأثير حب الله المالئ لكل القلب بدأ يفتقر وهو غني، فإن الروح القدس سيجعله مسكيناً من طراز آخر، إذ سيجعل فقره غنىً

حقيقياً، أي فقراً فعالاً لمحبة الله وليس لمجد نفسه: «كفقراء ونحن نُغْني كثيرين.» (٢كو٦: ١٠)

هنا الفقر بالروح أنشأ مجالاً قادراً بحد ذاته أن يجذب الآخرين وغيرهم، لأن الروح القدس حينما يلتحم بالفعل الإنساني ـــ حتى ولو كان فقيراً ـــ فإنه ينشىء قوة ومجالاً فائقاً لمجد الله.

ثم يكشف الرب يسوع مرة واحدة و برباط وثيق غاية أو هدف الفقر الروحي أو المسكنة بالروح هكذا: «طوبى للمساكين بالروح **لأن لهم ملكوت السموات**» (مت٥: ٣)، **كاشفاً عن سمات الفضيلة في المسيحية حسب الإنجيل، إذ لا بد أن تكون معمولة بالروح القدس، لكي يكون لها هذه الغاية الإلهية السعيدة: ملكوت السموات.**

وعلى نفس النمط تماماً يقول الرب يسوع: «لأن الآبَ طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له، الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو٤: ٢٣و٢٤). **السجود بالروح** هنا فعل فائق للطبيعة، فضيلة مقتدرة في فعلها، الله يطلبها «الله **روح**»، «الله طالبٌ الساجدين له **بالروح** والحق». عجيبة حقاً أن يعلن الله عن تشوُّقه السري هذا: «**الآب طالب**»، وذلك بالنسبة للسجود بالذات، فإنه معروف عند جميع الآباء المختبرين أنه ليس من بين جميع أعمال الإنسان ما يوازي السجود لله بالروح، فهو قوة ذات فعل متعدد الأثر، فهو يمجد الله حقاً، ويؤسس في قلب الإنسان روح العبادة والخشوع ويبدد قوة الشيطان ويحطم فخاخه. ولكن مرة أخرى ننبه أنه ليس مجرد السجود، بل السجود بقوة الروح القدس!!

وفي النهاية نستطيع أن نقول إنه بنظرة واحدة فاحصة يستطيع الإنسان المدقق

أن يرى كل صرح الفضائل المسيحية، كيف هو قائم على أساس واحد ثابت لا يهتز منذ البدء بحسب الإنجيل، كما أوضحه الرب يسوع المسيح: «أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد **وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك**. هذه هي الوصية الأولى» (مر١٢: ٢٩و٣٠). أو كقول موسى مرة أخرى: «ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من **كل قلبك ومن كل نفسك** لتحيا.» (تث٣٠: ٦)

هذا هو المفتاح السري لكل الفضائل المسيحية، لأنه **بمجرد أن يتجه القلب طالباً حب الرب من كل القلب، ويسود هذا الحب على كل مَلكات النفس، ويطغى على كل الفكر، ويسيطر على كل القدرات، يدخل الإنسان تحت تدبير الروح القدس ليعمل الفضائل بإرشاد وحكمة وتدبير يفوق كل ما عند الإنسان من جهد وقدرة وعزيمة؛ حيث يعمل الإنسان الفضائل بفرح وعمق وسهولة وقدرة تحيِّر العقول، حيث تشهد الأعمال على فعل الروح القدس ببرهان وقوة وحكمة لا تُعانَد، حيث يصير كل المجد لله.**

وهكذا، فإن الفضائل المسيحية التي يعيشها الأتقياء في كل جيل قامت وتقوم على فعلين رئيسيين: واحد من جهة الإنسان، والآخر من جهة الله. أما فعل الإنسان المُطالَب به، فهو أن يكون دافع كل عمل هو حب قوي وكامل لله من كل القلب. وأما فعل الله الذي يتعهد به فهو منح قوة الروح القدس لتكميل كل فضيلة لمجد الله وملكوته!!

الباب الأول

الفضائل الثلاث الأساسية

الإيمان والرجاء والمحبة

١ ــ الإيمـــان

أولاً ــ تعريف :

أصل الكلمة في العبرية يميل في العهد القديم إلى العامل الأدبي الأخلاقي دون العقلي، كهبة تُمنح للإنسان للثبوت في المواقف مع الله. أما في اليونانية في العهد الجديد فتميل الكلمة بالأكثر إلى عامل المعرفة للتقرب إلى الله عن طريق الحق.

لذلك نجد كلمة «يؤمن» في العهد الجديد و بالأخص في إنجيل يوحنا تفيد التصديق: «يا امرأة صدقيني πίστευέ μοι » (يو٤ : ٢١). ولكن الصفة الغالبة للإيمان في العهد الجديد هي **الثقة الشخصية القائمة على التصديق :** «أنتم تؤمنون بالله **فآمنوا بي**.» (يو١٤ : ١)

الإيمان هبة البنوة لله :

ولكن يرتفع وزن الإيمان جداً في مواضع كثيرة في الإنجيل ليبلغ إلى معنى **أعلى من الثقة الشخصية القائمة على التصديق، وهو التبعية**، وذلك حينما يؤمن الإنسان **باسم المسيح** فيصير تابعاً لله كابن ويسمى باسم الله كما يسمى الابن باسم أبيه عندما يولد: «وأما كل الذين قبلوه **فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه**» (يو١ : ١٢). لذلك نجد أن المعمودية يلزم أن تتم باسم الآب والابن والروح القدس حتى يصبح الإنسان ابناً لله عن طريق **الإيمان باسم الثالوث.**

الإيمان شهادة تصديق لله:

وهنا يشمل «الإيمان» معنى **الولاء الكلي والتبعية** الكلية لله الذي له الجزاء حياة أبدية: «أكتب هذا إليكم أنتم **المؤمنون باسم ابن الله** لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية» (١يو٥: ١٣)، حيث عدم الإيمان باسم ابن الله يُعتَبَر حرماناً كلياً من الله: «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن به قد **دِيْن لأنه لم يؤمن** باسم ابن الله الوحيد» (يو٣: ١٨)، وذلك باعتبار أن الله شهد لابنه وقدّمه للعالم معلناً ذاته فيه. فالذي لا يؤمن بالمسيح يكون قد رفض شهادة الله: «من لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم **يؤمن بالشهادة** التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (١يو٥: ١٠)

وهنا الإيمان يظهر أنه قدرة حرة في أعماق الإنسان أُعطي بواسطتها أن يستجيب «لشهادة الله عن نفسه وعن ابنه».

الإيمان قوة لرؤية الله:

كما أنه توجد علاقة قوية بين قوة الإيمان وقوة رؤيا الله أو رؤيا الحياة الأبدية، وهذا نعلمه من حادثة توما الرسول لما لمس الرب ورآه بالعيان فآمن (يو٢٠: ٢٧–٢٩). وكذلك العكس من قول الرب لمرثا: «**إن آمنتِ ترين مجد الله**» (يو١١: ٤٠)، حيث يمكن بدون لمس الرب أو نظره بالعيان أن نرى مجد الله. **فالإيمان هو قوة الإبصار الروحي** الذي به نعرف ونرى الرب، ونرى الحياة الأبدية، ونرى ما لا يُرى!

فالإيمان قد أُعطي لنا في العهد الجديد مسنوداً بشهادة الإنجيل وصوت الروح القدس حتى نستطيع بنوره أن نحيا مع المسيح وندركه تماماً، كما كان يعيش معه توما متحسساً جروحه بأصبعه.

الإيمان إدراك للتجسد:

الإيمان هو العين العقلية التي نرى بها التجسد حقيقة معنا كل يوم.

الإيمان هو العين الإلهية التي نرى بها الآب حينما نكتشف بواسطتها مجد الابن!! «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩)، لأن المسيح «بهاء مجده ورسم جوهره» (عب١: ٣). لذلك إذا عجزنا عن أن ندرك المسيح فيستحيل أن ندرك الله إدراكاً صحيحاً كاملاً.

ثانياً: علاقة الإيمان بالمعرفة:

الإيمان يتضمن بالأساس معرفة، معرفة الله. ولكن المعرفة التي يتطلبها الإيمان عن الله ليست هي النوع الذي يختص بظواهر الأشياء أو صفاتها الموضوعية المجردة حسب المنطق والتحليل العقلي الصرف؛ بل المعرفة المتَّصفة بالتعمق الشخصي التي تجتذب النفس نحو الإحساس المباشر بالله!

لذلك فطالما الإنسان متحيز لذاته وفي نفور مع الله، فإنه يستحيل عليه معرفة الله بالمعرفة الإيمانية. وهذا ما يقوله القديس بولس الرسول: «الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ولا يقدر أن يعرفه» (١كو٢: ١٤). وهنا إشارة واضحة صريحة أنه لكي يكون للإنسان معرفة إيمانية بالله يلزم أن يقبل أولاً هبة إلهية تساعد المعرفة الطبيعية لقبول الحقائق الإلهية، حتى لا تعود تبدو كأنها جهالة، بل ينكشف بالروح سر الله فيها؛ «**فأعلنه الله لنا نحن بروحه** لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله. ... ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله.» (١كو٢: ١٠و١٢)

التعمق في خبرة الإيمان ينشيء محبة:

وهذا يعني أيضاً أن معرفة الله تتناسب مع اتصالنا أو شركتنا معه، فبقدر

تعمقنا في الخبرة الشخصية الإيمانية مع الله **تزداد معرفتنا به**، والخبرة الشخصية الإيمانية مع الله هي هي **خبرة المحبة!**

لذلك، فالمعرفة هي ثمرة الإيمان حينما يكون على مستوى المحبة القائمة على العلاقة الداخلية: «فإن كان أحد **يظن أنه يعرف** شيئاً، فإنه لم يعرف شيئاً بعد كما يجب أن يعرف. **ولكن إن كان أحد يحب الله، فهذا (الله) معروف عنده.**» (١ كو٨: ٢و٣)

على قدر الإيمان تتحدد المعرفة بالله:

ولكن بسبب أن الإيمان الآن تصدمه عوائق كثيرة وتُضْعفه الخبرات غير الناجحة مع الله بسبب **تعوُّق** الإنسان في المحبة القوية، فقد نتج عن ذلك أن أصبحت معرفتنا بالله مشوهة. هذا بالإضافة إلى أن الإيمان أساساً يقوم أغلبه على مواعيد آتية كثيرة لم نأخذ منها الآن إلا مجرد العربون. فنحن الآن نذوق فقط بعض المواعيد، كالتبني والفداء الكامل والخلاص الكامل. لذلك فقد نتج بالضرورة أن صارت معرفتنا بالله الآن لو قيست بالمعرفة الصحيحة المزمعة أن ننالها في الأبدية لا تزيد عن صورة معتمة من خلال مرآة بالنسبة للحقيقة الناصعة؛ أو لا تزيد عن معرفة الطفل بالنسبة لمعرفة الرجل!

من هذا نتج بالضرورة أن كافة التعبيرات الإيمانية عن الله تحتاج إلى تأمل عميق وفحص واجتهاد وصلاة، لأنها تحوي أعماقاً من المعرفة أعلى من منطوق الألفاظ.

ثالثاً: الإيمان المغروس بالفطرة:

الإيمان موهبة لها أساسها العميق في طبيعة الإنسان بالفطرة، كحاجة يشعرها الإنسان نحو الله، مزروعة في صميم الكيان البشري، وتقوم في صورة إيمان بوجود

آخر فائق للطبيعة!! وهذه موهبة تحوي في طبيعتها البدائية البذرة الأُولى الكامنة الخاصة بالمعرفة الفائقة والاستعلان والرؤيا. والإحساس البدائي للإيمان الموجود في كل نفس بشرية هو عبارة عن صلة مُبْهَمَة بين الله والنفس تحسُّها بواسطة قدرة داخلية تمتاز عن كافة القدرات الطبيعية الأخرى وتفوق كل أحاسيس الإنسان، بحيث لو تسمَّع لها الإنسان جيداً فإنها تنشيء فيه وجوداً آخر أعظم من وجوده الذاتي، وتجرف أمامها كل الكيان البشري وتتسيطر على عقل الإنسان وتفكيره وحواسه كلها! أما إذا تجاهلها الإنسان فإنه يكون قد فقد شيئاً أعظم من كيانه!

رابعاً: طبيعة الإيمان العام:

حينما وضع القديس بولس الرسول إبراهيم كمَثَلٍ لبرِّ الإيمان، فذلك لأن إبراهيم قَبِلَ وعد الله وصدَّقه، مع أن هذا الوعد كان يفوق بالفعل كل الكيان البشري وقدراته الطبيعية! فإبراهيم تقبَّل أمراً من الله للوقوف موقفاً يفوق إمكانيات الطبيعة كلها سواء بترك أهله وعشيرته ووطنه، أو بانتظار ابن له في شيخوخته الطاعنة، أو بذبح ابنه وحيده، وهو بذلك يكون قد استطاع بالاستجابة لنداء الإيمان الذي فيه أن يرفع نفسه فوق كل الموانع التي تحجز الإنسان عن طاعة الله!! متمسكاً بكلمة الله رغم كل المستحيلات العقلية والطبيعية. وهذا أول اكتشاف لعمل النعمة المختفية في الإنسان.

وهكذا يتضح من إيمان إبراهيم بوعد الله (بميلاد ابن له وهو شيخ وامرأته متقدمة جداً في الأيام)، أن جوهر الإيمان هنا هو **الثقة بكلمة الله ووعده فوق** العقل والمنطق والمحسوسات جميعاً.

و بهذا يكون الإيمان عبارة عن تقدير وتكريم عملي لله القادر على الخلقة من لاشيء. وفي نفس الوقت يصبح الإيمان واسطة **لاعتماد الإنسان على الله اعتماداً**

لانهائياً يفوق حدود المنطق والمعقول والمحسوس، وفي هذا تكريم عالٍ لله: «... ولا بعدم إيمان ارتاب في وعد الله بل تقوّى بالإيمان **مُعْطِياً مجداً لله**.» (رو٤: ٢٠)

ولأن تكريم الله بالإيمان هو الذي يجعل إيمان الإنسان يتزكى: «فحُسب له براً δικαιοσύνη » (رو٤: ٣)، التي تفيد في مضمونها معنى مساوياً تماماً لإنسان أُعطي مسئولية هامة ليكمّلها فكمّلها بالحق والأمانة والعدل حسب القانون، فحُسب عمله بمثابة تزكية أهّلته أن يُدعَى عادلاً أميناً بالحق و بالقانون. لذلك نرى أن إيمان إبراهيم هنا قد تساوى مع الذين أُعطي لهم الناموس، فأكملوه بالعدل والأمانة والحق تماماً. هنا يُبْرِز الإيمان عملاً سرياً عالياً لتزكية الإنسان أمام الله. فبالرغم من أن إبراهيم كان ليس بدون خطية ــ إذ ليس إنسان قط بدون خطية، ولكن بسبب استجابة إبراهيم لدوافع الإيمان المغروسة في طبيعته استطاع أن يُكرِم الله بالحقيقة، فتزكّى ودخل في علاقة مع الله كأنه بارٌّ.

+ الإيمان ليس مفهوماً عقلياً، **بل عملاً يفوق العقل**، فهو تمجيد لله يفوق كل مجد الإنسان لأن مجد الإنسان عقله.

+ وهو ليس مجرد استجابة منطقية لمطالب الله، بل قبولَ **أمر من الله يستحيل عمله بواسطة الإنسان**، فهو اعتراف بقدرة الله الفائقة!!

+ وليس عملاً يتفق مع قدرات الإنسان الطبيعية، **ولكنه يتعدى الطبيعة**، لذلك فهو تزكية للإنسان للاتصال بما هو فوق الطبيعة، أي بالله.

+ فالإيمان هو في الحقيقة قدرة موهوبة للإنسان لتمجيد الله أولاً، ولكي يرتفع بها فوق الطبيعة أيضاً ليتصل بواسطتها بالله، فيتقدس، وتتقدس حياته كلها.

+ وكذلك، فإن الله ينتظر منا عمل الإيمان **كواسطة يستطيع من خلالها أن يتصل بالإنسان** و يعلن بواسطة ذاته صفاته للإنسان: «ها أنا معكم كل الأيام»

(مت٢٨: ٢٠)، «أعلمك، أرشدك، ... أنصحك» (مز٣٢: ٨). فالإيمان هو واسطة للمعرفة الإلهية.

+ ولهذا كله صار الإيمان هو الموهبة الأُولى التي بدونها لا يمكن معرفة الله أو الاتصال به: «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه.» (عب١١: ٦)

خامساً: طبيعة الإيمان المسيحي:

لم يكن الله في أيام إبراهيم قد أعلن بعد شيئاً عن حقائق أسرار لاهوته، فكان إيمان إبراهيم متعلقاً بشخص الله فقط كموجود وكقادر أن يتمم ما وعد به. لذلك يُعتبر إيمان إبراهيم أنه إيمان شخصي. ولكن بمجيء المسيح وإعلان حقيقة الثالوث الأقدس وطبيعة التجسد الإلهي الفائق للعقل وعمل الفداء العجيب، صار للإيمان بالله موضوع محدد يلزم تصديقه والثقة به بحد ذاته والاعتقاد الراسخ في قوته وعمله، وفوق هذا كله، الاستجابة الشخصية له والعمل بمقتضاه. و بهذا أصبح الإيمان المسيحي له شِقَّان:

الشِّقُّ الأول: موضوعي، **أي حقائق لاهوتية يلزم الإيمان بها وتصديقها حسب الإنجيل والمجامع المسكونية والآباء.**

الشِّقُّ الثاني: شخصي، **وهو مقدار استجابة الإنسان لهذه الحقائق الإيمانية** ومقدار التأثُّر بها والانفعال بها لتغيير الحياة البشرية و بلوغ القصد منها حسب مشيئة الله.

فالأول هو **الإيمان الذي نصدقه ونعتقد به**، والثاني هو **الإيمان الذي نحياه ونعمل به.**

والإيمان بسر الثالوث والتجسد والفداء، سواء في شقِّه الأول كموضوع

للتصديق فقط، أو في شقه الثاني كاستجابة شخصية بالعمل، هو في الواقع وحسب العقيدة الأرثوذكسية موهبة فائقة لطبيعة العقل والمنطق والمحسوسات. لذلك فهو مساوٍ تماماً لإيمان إبراهيم من هذه الناحية: «ولكن لم يُكتَب من أجله وحده (إبراهيم) أنه حُسب له (براً)، بل من أجلنا نحن أيضاً الذين سيُحسَب لنا **الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات.** الذي أُسلِمَ من أجل خطايانا، وأُقيمَ **لأجل تبريرنا.»** (رو٤: ٢٣ــ٢٥)

ولكن الإيمان المسيحي بالله وبمواعيده، بشقَّيه الموضوعي والشخصي، يزيد هنا على إيمان إبراهيم بعامل آخر مهم وهو الإيمان برفع الخطية و يشمل: **الإحساس أولاً بالخطية، ثم إدراك دورها الخطير** في حياة الإنسان وكيف **أفقَدَتْ الإنسان أي استحقاق للتبرير أمام الله، ثم اشتياق الإنسان للتحرُّر من سيادة الخطية،** ثم اليقين بوعد الله من جهة التطهير بدم المسيح، بدون **أن يبلغ الإنسان اليأس قط مهما بلغت درجة خطاياه؛** وذلك كله بالتمسك الشديد بالإيمان بسر الفداء كنعمة مُنحت لنا للإنعتاق من سلطان الخطية، وفي النهاية الصلاة باستمرار لانفتاح مجال الإيمان للدخول في شركة حياة مع الفادي لنتقبل منه باستمرار عنصراً إلهياً للتغيير يتغلغل إنساننا العتيق ويحوِّله.

ولأن الإيمان المسيحي تسبَّب في انكشاف الدور الخطير الذي تقوم به الخطية في هدم حياة الإنسان وحرمانه من أي حق للتبرير أمام الله وسقوطه من الحياة الأبدية، لذلك تظهر أهمية الفداء في الإيمان المسيحي كأساس هام جداً مُضاف إلى مضمون الإيمان بالله عند إبراهيم. ومن هنا يظهر أن الإيمان بالمسيح كفادٍ، هو نقطة البداية الكبرى في الإيمان المسيحي.

وبحسب أصول الإيمان المسيحي، فلكي نحصل على الفداء الذي أكمله المسيح يتحتم تطبيق الإيمان بالفداء بشقيه الموضوعي والشخصي:

أما **الإيمان الموضوعي** بالفداء الذي أكمله المسيح، فهذا يشمل الأسس اللاهوتية العقيدية التي شرحتها المجامع المسكونية فيما يختص بموت المسيح الحقيقي وقيامته: «إن لم تؤمنوا إني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو٨: ٢٤)، «آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص.» (أع١٦: ٣١)

أما **الإيمان الشخصي** بالفداء الذي أكمله المسيح، فهذا يُحتِّم أن يبدأ الإنسان حياة شركة حارة صادقة مع المسيح الفادي الذي مات ليفديني من الموت.

سادساً: الإيمان بالمسيح إيمان شخصي بالشركة:

الإيمان المسيحي كما تسلمه الرسل وكما سلموه للكنيسة بحياتهم ورسائلهم يتركز جداً في شخص المسيح نفسه، فهو فوق أنه إيمان بالحقائق الفدائية والخلاصية والسرية التي أكملها المسيح، هو إيمان بالمسيح نفسه بالمعنى العميق الواقعي. إيمان عرفناه عنهم ومارسناه «إيمان شركة ــ كينونيا» التي تفيد وحدة الفكر والتدبير! «أمين هو الله الذي به دُعيتُم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا» (١كو١: ٩)، حيث ترتفع حقيقة الشركة مع المسيح في الإيمان المسيحي إلى حالة **اتحاد في الموت** بإحساس واقعي نمارسه بالفعل إنما بالوضع السري: «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟» (١كو١٠: ١٦)

إيمان الشركة له فعالية حية:

وهذه الشركة الحقيقية مع شخص المسيح التي نكملها بالممارسة الإيمانية السرية، تظهر إلى حيز العمل والتنفيذ بالمشاركة الفعلية في تحمل الآلام الناجمة عن الإيمان بالمسيح: «لأعرفه وقوة قيامته **وشركة آلامه متشبهاً بموته.**» (في٣: ١٠)

فشخص المسيح في الإيمان المسيحي «عامل حيوي» يعيش به الإنسان

و يعـيـش فيه و يعيش معه: «مع المسيح صُلِبْتُ، فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ. فـمـا أحيـاه الآن في الجسـد فـإنما **أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله** الذي أحبني وأسلـم نـفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠). ويلاحظ هنا أن عبارة: «المسيح يحيا فيَّ» جاءت مـسـاويـة لـعبـارة: «**أحيـا في الإيمـان**، إيمان ابن الله»، وهذا تعبير عن الشركة المتبادَلة. وهذه يوضحها الرسول جداً بقوله: «جربوا أنفسكم **هل أنتم في الإيمان؟** امتحنوا أنفسكم أم لستم تعرفون أنفسكم أن **يسوع المسيح هو فيكم** إن لم تكونوا مرفوضين؟» (٢كو١٣: ٥)

أي أن شخـص المسيح في الإيمان المسيحي ليس شخصية تاريخية نؤمن بما فعله فـقـط؛ بـل «طـاقـة فـعـالـة» في المسيح، «قوة حياة» لا تزول تعمل فينا كل يوم و باستمرار: «الأمر الذي لأجله أتعب أيضاً مجاهداً بحسب **عمله الذي يعمل فيَّ بقوة**» (كو١: ٢٩). ولـكـن ليس هذا مجرد حالة فردية لبولس الرسول فقط، إنما هذا هو قانون الإيمان العام:

+ «**ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم.**» (أف٣: ١٧)

+ «لـتـعـلـمـوا مـا هـو رجـاء دعـوته... وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته.» (أف١: ١٨و١٩)

+ «القادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا.» (أف٣: ٢٠)

+ «باسـم ربـنـا يـسـوع المسيح إذ **أنتم وروحي مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح**» (١كو٥: ٤)،

حيـث يـتـضـح هـنـا أن المسيح صـار هو قوة الله التي نعيش بها المعطاة لنا: «فبالمسيح قوة الله وحكمة الله.» (١كو١: ٢٤)

أنا قوي بإيماني وضعيف بذاتي:

إذاً، فمعنى أن يكون «المسيح فينا» من جهة الإيمان هو أن يكون إيماننا حياً في المسيح عاملاً باستمرار بقوته، حيث ملء المسيح لنا داخلياً ووجوده فينا يعني بالضرورة إلغاء امتيازات الذات البشرية!! حيث نتقبّل قوته في ضعفنا على الدوام: «أفتخر بالحري في ضعفاتي **لكي تحل عليَّ قوة المسيح**» (٢ كو١٢ : ٩). وليس «قوته» فقط بل كل «غنى المسيح» و «بركات المسيح» و «ملء المسيح» و «إيمان المسيح» و «محبة المسيح» و «رجاء المسيح» و «سلام المسيح» و «وداعة المسيح» و «لطف المسيح» و «أحشاء رحمة المسيح» و «صبر المسيح» و «طاعة المسيح» و «حق المسيح» و «حنان المسيح» و «آلام المسيح» ... إلخ.

الإيمان بالمسيح يعطي كل ما للمسيح:

وهكذا يتضح أن كافة المواهب والفضائل والنعم الإلهية تكون فينا وتكون لنا حينما يكون المسيح فينا ولنا. فإذا لم يكن المسيح فينا فلا يمكن أن يكون لنا شيء مما للمسيح! بل كما يقول القديس بولس الرسول: «نكون نحن وكأننا مرفوضون» (٢ كو١٣ : ٧)، إذ أنه «بدون مسيح ... لا رجاء لكم وبلا إله في العالم» (أف٢ : ١٢). وهذا يستلزم أولاً أن نكون «نحن في المسيح»، وهذا يعني أن لا نكون موجودين «في أنفسنا» أو «في العالم»؛ بل نكون محصورين بجملتنا في المسيح وملتزمين به في كل شيء حيث نكون قد خسرنا كل شيء وحسبناه نفاية «لنربح المسيح **ونوجَد فيه**.» (في٣ : ٨و٩)

وحينما نقرن الاصطلاحين معاً «المسيح فينا» و «نحن في المسيح»، يظهر معنى الشركة في المفهوم الإيماني. وهذه الشركة بدورها تمهد في ذهننا لمفهوم الاتحاد في المعنى الواقعي، الذي صار عقيدة أساسية لدى الكنيسة، حيث نقرأ عنه في

رسالة القديس الشهيد إغناطيوس الأنطاكي إلى أفسس ٩ : ٢، كيف أن المسيحي مدعوٌّ أن يلبس المسيح، فيصير «خريستوفوروس»، كما يلبس القداسة داخلاً وخارجاً فيصير «آجيوفوروس».

ولأن المسيح الذي نؤمن به أنه فينا وأننا فيه هو هو المسيح يسوع المصلوب والقائم من الأموات، لذلك و بذلك صارت لنا بواسطة الشركة الحقيقية معه كل ما له وكل ما أكمله من أجلنا! «لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً **بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً**» (١كو٢: ٢). و بهذا يصير الإيمان الشخصي بيسوع المسيح هو المدخل الوحيد لفهم وتكميل الإيمان الموضوعي، أي الإيمان العقيدي بالحقائق اللاهوتية المتعلقة بالإيمان المسيحي كله!

أما نهاية الشركة أو الاتحاد بالمسيح بالإيمان، فهي أن نختفي في المسيح بجملتنا لنصير لله الآب: «قد مُتُّم **وحياتكم مستترة مع المسيح في الله**» (كو٣: ٣). وحينئذٍ يثمر إيماننا بالمسيح بالدالة والجرأة أن نظهر أمام الله الآب: «الذي به لنا جراءة وقدوم **بإيمانه** عن ثقة.» (أف٣: ١٢)

ومن هذا كله يتضح أن «الإيمان الشخصي بالمسيح» ينشيء بالضرورة حياة داخلية غنية بالروح، قوية وفعالة، ودالة مع الله أساسُها الاعتماد الشخصي عليه من كل القلب.

سابعاً: معنى الاتحاد بالمسيح عملياً من جهة الإيمان:

بالإضافة إلى مضمون الإيمان عند إبراهيم، فإن المسيحي يمسك، أول ما يمسك، بالفداء الذي أكمله المسيح عنا في صميم الحياة التي نعيشها الآن، ونحن متحدون معه سراً وعلناً بالإيمان والعمل، اتحاداً مزدوجاً سلبياً وإيجابياً، سلبياً بالموت المستمر معه عن حياة الخطية والعالم، وإيجابياً بالتمسك معه بناموس

القداسة للحياة الأبدية الذي يمتد بالإنسان إلى مجال الرجاء.

فالإيمان المسيحي يقوم عملياً على غلبة الخطية والموت، وعلى قبول الحياة الأبدية، وذلك بالإيمان بالمسيح والاتحاد المزدوج معه في موته وقيامته، باعتبار أن المسيح بموته عنا غلب الخطية وغلب الموت لنا و بقيامته من الموت أعطانا الحياة الأبدية. لذلك، فالاتحاد به هو دعوة يدعونا هو إليها بنعمته ويتممها لنا بقدرته الإلهية يوماً فيوماً، حتى نحصل بواسطتها على غلبة الخطية والموت وعلى الحياة الأبدية.

ثامناً: ناموس الإيمان ناموس للعمل القلبي:

وبما أن الإيمان المسيحي أصبح يُتمَّم يوماً بيوم لتجديد الحياة، بمقتضى الالتصاق بالفادي ومؤازرة النعمة على مستوى العمل والجهد والإرادة، لذلك ارتبط الإيمان المسيحي بالتالي بناموس جديد ليس كالناموس اليهودي الأول الذي يتعلق بالأعمال الخارجية، وإنما ناموس روحي جديد يتعلق بالقلب والعمل الداخلي لتطهير «داخل الكأس والصحفة» (مت٢٣: ٢٦)، سماه الكتاب المقدس **بالناموس الروحي، وناموس الحياة، وناموس الإيمان، وناموس الحرية، وناموس المسيح، والعبادة بالروح والحق** (رو٧: ١٤؛ ٨: ٢؛ ٣: ٢٧، يع٢: ١٢، غل٦: ٢، يو٤: ٢٤)، وهو يشمل كافة وصايا الرب كما أعلنه الرسل وشرحته الكنيسة.

ولأن الناموس اليهودي كان متعلقاً بالأعمال الخارجية فقط، فقد كان عاجزاً عن تغيير الداخل، و بذلك كان الناموس اليهودي لا يعبِّر عن الطاعة **الحقيقية لله.** أما الناموس المسيحي فغايته تغيير الداخل ليكون مطابقاً لمشيئة الله، وهنا معنى الطاعة الحقيقية لله.

ناموس التغيير المستمر:

والفرق بين الناموسين في حياة الإنسان بالنسبة لله واضح وخطير، كالفرق بين العبد في البيت و بين الأبناء. فالذي يميز الابن من العبد هو أن الابن يطيع و يتمم إرادة أبيه لا كأن هذه الإرادة غريبة عنه (من الخارج)؛ بل إنه يجعلها وكأنها إرادته الخاصة (من الداخل)، كما أنه يعتمد على أبيه بصفته مصدر حياته؛ أما العبد فلا يدفعه لتتميم إرادة سيده إلا الخوف، وهو وإن كان يتمم مشيئة صاحب البيت إلا أنه يتممها تتميماً خارجياً لا يمس داخله، لذلك فالعبد لا يعتبر أن إرادة سيده هي مصدر حياته أو حريته بل بالحري يراها دائماً أنها مصدر عبوديته!!

إيمان الناموس القديم: عبودية

وإيمــان المسيح: بنوية

فالإيمان اليهودي حسب الناموس القديم الخارجي، كان إيمان عبودية ظاهرية لا يقوى على تغيير الداخل؛ أما الإيمان المسيحي **حسب ناموس روح الحياة** في المسيح فهو **إيمان بنوية لله وشركة معه بالإرادة والعمل والنعمة** بواسطة الاتحاد بيسوع المسيح في موته وقيامته، حيث وسيط الحرية هنا هو الروح القدس نفسه الذي يلدنا كأطفال جدد لله ويعطينا ختم الفداء وعربون القيامة: «... إذ آمنتم خُتمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى» (أف ١: ١٣و١٤)، «لأن كل الذين **ينقادون بروح الله** فأولئك هم **أبناء الله**. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله» (رو٨: ١٤ــ١٦)، «إذاً لست بعد عبداً بل ابناً وإن كنت ابناً فوارثاً لله بالمسيح.» (غل ٤: ٧)

ناموس الإيمان: موت وقيامة

ولأن الإيمان المسيحي مرتبط أساساً بالفداء الذي أكمله المسيح **بموته وقيامته**،

أصبح ناموس الإيمان المسيحي يستلزم منا حتماً عملية موت وقيامة، موت عن الخطية وقيامة لحياة مقدسة أبدية. ومن شأن هذا الموت وهذه القيامة أنهما يوصلاننا إلى الحرية من التزامات هذا الدهر الجسدية والنفسية والفكرية، وإلى الاعتماد المطلق على الله وتدخُّله الكامل في حياة الإنسان لقبول الحياة الأبدية: «لأن الله هو العامل فيكم (إن كنا قد مُتْنا حقاً وقمنا حقاً) أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة.» (في ٢ : ١٣)

حرية المسيحي في اتضاعه نحو الآخرين:

وهنا جدير بالملاحظة أن نشير إلى أن حرية الإنسان المسيحي وسيادته على العالم والأشياء التي فيه لا يستمدها من قدراته الشخصية، إنما يستمدها من عمق إيمانه وحياته مع المسيح الذي مات وقام! على أن هذه الحرية المسيحية ليست تعالياً عن الواقع ولا انفصالاً عن الخطاة، بل إن الحرية المسيحية لا يمكن أن تظهر بصورتها العظيمة الإلهية كما كانت في المسيح إلا إذا كان الإنسان قادراً بواسطتها أن يستعبد نفسه لضعف الآخرين، سواء ليربحهم للمسيح أو لكي يُعْثِر إيمانهم الضعيف: «فإني إذ كنت حراً من الجميع استعبدتُ نفسي للجميع لأربح الأكثرين، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس — مع أني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح — لأربح الذين بلا ناموس، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ... وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه» (١ كو ٩ : ١٩ — ٢٣)، «لا يطلب أحد ما هو لنفسه بل كل واحد ما هو للآخرين.» (١ كو ١٠ : ٢٤)

+ الإيمان يستلزم أن يتخلى الإنسان عن كل اعتماده وثقته في إمكانياته وقدرته الشخصية.

+ الإيمان يعني أن يطرح الإنسان نفسه بكل ثقله على رحمة الله.
+ الإيمان يعني أن يمسك الإنسان بكل ثقته بوعود الله في شخص المسيح.
+ الإيمان يعني أن يعتمد الإنسان كلية على ما أكمله المسيح من فداء وخلاص.
+ الإيمان يعني أن يعتمد الإنسان في كل شيء وفي كل لحظة على الروح القدس الساكن فينا الذي يعطينا القوة اللازمة لنا لكل شيء.
+ الإيمان يعني أن يظل الإنسان مطيعاً لله، واثقاً فيه، في أخطر الظروف وأصعبها.

تاسعاً: تأمين الإيمان:

وإن كان على مدى جهاد الإيمان لا يمكن تحاشي الصراع والصدام مع الواقع الزمني وعجزه وتهديداته وسخريته، إلا أنه يبرز هنا عامل جديد يشد أزر الإيمان ويمتد به حتى يتجاوز أصعب الصعاب وأشقّ المشقات وأعنف الإخفاقات، ذلك هو الرجاء! **فالرجاء يشد أزر الإيمان في مواجهة الواقع. وبالمتابعة الإيمانية مع الرجاء، يغلب الإنسان الروحي كل العوائق الزمانية، ويتجاوزها، ليعيش منذ الآن الحياة الأبدية** التي يبقى باستمرار عاجزاً عن تكميل مطالبها بسبب مطالب الجسد. كذلك فإنه بازدياد نمو وعي الإنسان في الأمور المختصة بملكوت الله، يزداد حنينه إلى حرية البنين التي يحسبها في نفسه بسبب خطاياه أنها باستمرار ناقصة!! لذلك يظل المسيحي الذي أصبح له باكورة الروح يئن، كقول القديس بولس الرسول، بسبب تعارض عجزه مع شدة رجائه منتظراً التبني الكامل، ولا يسنده أو يعزّيه عن هذا النقص إلا تشفّع الروح.

٢ ــ الرجــاء

الإيمان أساس الرجاء:

الرجاء كفضيلة أو كموهبة روحية يُعتبر بمثابة امتداد للإيمان نفسه، إنما في المستقبل. والرجاء يستمد قوته من وعد الله وأمانته. والصفة الطبيعية التي تقابل الرجاء عند الإنسان هي «الأمل»، فالأمل هو الثقة المبنية على عوامل بشرية لترقُّب أشياء بشرية في المستقبل. وبالرغم من أن التحديد اللغوي بين «الرجاء» و «الأمل» غير معمول به دائماً، إلا أن الفرق بين طبيعة الاثنين كبير وجوهري. فالرجاء إلهيٌّ مرتبط بوعود روحية، والأمل بشريٌّ مرتبط بأماني أرضية.

والقديس بولس الرسول يربط بين إمكانية الحصول على موهبة الرجاء وبين الإيمان بوجود الله ومواعيده ربطاً شديداً. فبدون الإيمان بالله وانتظار مواعيده لا يكون للإنسان أي رجاء: «إنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم، وبلا إله في العالم.» (أف ٢: ١٢)

الرجاء بهجة الإيمان وثمرته:

وكما أن الأمل في الحصول على نتيجة حسنة للجهد الجسدي أو الذهني المبذول يجعل العمل والجهاد لذيذاً ومحبوباً؛ كذلك الرجاء في الحياة الروحية، فإن انتظار تحقيق وعد الله بمجيء المسيح في مجده ومكافأة المؤمنين بمجد الحياة الأبدية

ثمناً لبر الإيمان وتعويضاً عن آلامهم وخساراتهم و بذلهم التي عانوها على الأرض من أجل طاعة الإيمان، هذا الرجاء يجعل أعمال الإيمان والآلام والخسارات والبذل أموراً مقبولة وغير متعارضة مع فكر الإنسان.

لذلك، فالرجاء هو القوة الإلهية التي تغذي الإيمان وتدفعه للعمل والجهاد ليستمر عبر الزمان ويتجاوزه أيضاً حتى بعد الموت. لذلك، فالرجاء هو مصدر العزيمة والشجاعة في تحمُّل أتعاب الخدمة، وهو سر الفرح في ضيقات الحياة وسر السلام الذي يشمل المؤمنين عند مواجهة علامات الانطلاق للرحيل: «ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين **الذين لا رجاء لهم.** لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، **كذلك الراقدون بيسوع سيُحضرهم** الله أيضاً معه.» (١تس ٤: ١٣و١٤)

النعمة تزكّي الرجاء وتلهبه:

والرجاء باعتباره الموهبة المنبثقة من الإيمان، أو بصفته الإيمان نفسه عندما يتطلع إلى مواعيد الله الآتية، لا يعتمد على القدرات البشرية ولا على الظروف الزمانية ولا على ما يعمله الإنسان لنفسه ولا على ما يمكن أن يعمله الآخرون. فرجاء إبراهيم في تحقيق وعد الله كان على أشد قوته عندما كان هو في أشد الضعف وسارة في منتهى الاضمحلال!

فالرجاء في مواعيد الله لا يلزمه أية بادرة أو إشارة أو معقولية في الحاضر على إمكانية حدوثها: «**فهو على خلاف الرجاء** آمن على الرجاء» (رو ٤: ١٨)، بل يعتمد كلية على النعمة: «فألقوا **رجاءكم** بالتمام على النعمة» (١بط ١: ١٣). كذلك لا يمكن أن يزدهر الرجاء في الإنسان إلا بالتمسك بالروح القدس: «فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر.» (غل ٥: ٥)

الرجاء دائماً يختص بصلاح الله نحونا :

وكما أن الإيمان يعتمد على ما سبق وأعلنه الله عن نفسه وما سبق وأكمله من الفداء بابنه يسوع المسيح ، كذلك الرجاء فإنه يعتمد على ما وعدنا الله به أنه سيعمله في المستقبل من جهة القيامة ومجيء المسيح في مجده لتكميل الخلاص ومنحنا حياة جديدة زاخرة بالروح . لذلك ، فإن الرجاء هو امتداد للماضي والحاضر عَبْر المستقبل غير المنظور ، شاهداً أن الله هو هو صالح وكريم أمس واليوم وإلى الأبد ، ويؤكد أن الله لا يزال وسيظل يعمل خلاصاً من أجلنا : «الذي **نجانا من موت مثل هذا وهو ينجِّي ، الذي لنا رجاء فيه أنه سينجِّي أيضاً فيما بعد .**» (٢ كو١ : ١٠)

جزاء الرجاء سيظل مستتراً حتى ظهور المسيح :

وبينما كان مفروضاً أن كل مسيحي عندما ينال نصيبه في الحياة الأبدية بالعماد وتسري فيه طبيعة الخليقة الجديدة ويقبل روح التبني لله ، أي حينما تزدهر فيه موهبة الرجاء بمفاعيلها ، أن ينكشف مجد الله فيه أو بالأقل جداً يكتشف هو مجد الله الذي قَبِله داخله ؛ إلا أنه على العكس من ذلك ، فنحن الآن مجرَّدون من كل مجد ، وذلك حسب قانون الحياة الأبدية ؛ لأنه كما قد أُخفي الآن عن العالم كل مجد المسيح الجالس عن يمين العظمة في السموات ، كذلك بالنسبة لكل من اشترك في هذا المجد أيضاً : «قد مُتُّم **وحياتكم مستترة مع المسيح في الله .** متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣ : ٣و٤). أي أن مقدار الرجاء لا يمكن أن يُقاسَ عمله وقوته الآن إلا بالاحتمال والصبر ، أما استعلان مجد الرجاء وجزاءه فسيتم مع ظهور المسيح .

المسيح الحي الموجود معنا هو موضوع رجائنا :

غير أن المصدر الذي يغذي موهبة الرجاء التي فينا ويجعلها قادرة على مواجهة التعارض الشديد بين مواعيد المستقبل المفرحة وحقيقة الواقع المؤلمة ، ليس مجرد

أفكار عن حقائق قادمة، ولكن شخص المسيح نفسه الذي سبق وظهر مرات كثيرة في شبه مجده والذي سيأتي به في النهاية كما حدث في التجلي أو في رؤيا إستفانوس أو في ظهوره في منتصف النهار لبولس الرسول بوجه يلمع أكثر من الشمس! هذا المسيح الممجد والآتي في مجده، الذي هو مصدر قوة رجائنا، هو هو نفسه معنا الآن إنما في سر و بدون استعلان بالعيان، لأننا نحيا الآن بالإيمان فقط: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو٢٠: ٢٩)

إذاً، فرجاؤنا حيٌّ و برهانه قائم معنا ولا ينقصه إلا رؤيا العيان فقط، الرؤيا التي نئن من أجلها بشوق شديد وحار: «وتنتظروا ابنه من السماء الذي أقامه من الأموات، يسوع الذي يُنقذنا من الغضب الآتي.» (١تس١: ١٠)

فموهبة الرجاء كامنة فينا الآن، طالما نحن متحققون بيقين من شخص يسوع المسيح الذي فينا، ولكننا لا نزال نترقب ظهوره. فإذا تم ظهوره ينتهي الرجاء إلى الأبد، إذ لا يعود له سبب ولا حاجة: «حتى إنكم لستم ناقصين في موهبة ما، وأنتم متوقعون استعلان ربنا يسوع المسيح.» (١كو١: ٧)

وليس معنى أننا «نعيش على الرجاء» أننا نحيا في الخيال، لأن الرجاء الذي نعيش عليه يحققه الله لنا بالإيمان يوماً بعد يوم، لأن ملكوت الله الآتي قد بدأ منذ قيامة المسيح وهو يعمل في داخلنا سراً بواسطة المسيح الحي، حتى إن كل أولاد الله يعيشون منذ الآن في سيرة روحانية مع المسيح لا تشاكل هذا الدهر، منفصلة عن الخطاة، ناظرة إلى فوق: «فإن **سيرتنا نحن هي في السموات** التي منها أيضاً **ننتظر مخلصاً** هو الرب يسوع المسيح.» (في٣: ٢٠)

الرجاء سيرة وحياة وفرح لا يُستَنْفَد قط:

أي أن الرجاء الذي فينا يصنع منذ الآن سيرتنا في السموات، التي هي مخفية

في هـذا الـزمـان ومـستترة مع المسيح المستتر، ولكن لا ينقصها إلا الاستعلان الذي سيـتـم مع استعلان المسيح في نفس الوقت: «وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا تُظْهَرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣: ٣و٤)

غير أن مـن خـصـائـص الرجاء المعزية لقلوبنا أن هذا الاستعلان سيصحبه فرح كثير وعزاء ومجد وراحة ما بعدها راحة: «إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجـازيـهـم ضـيقاً، وإياكم الذين تتضايقون **راحة معنا عند استعلان الرب يسوع** من السماء مع ملائكة قوته ... **متى جاء ليُتمجَّد في قديسيه** ويُتعجَّب منه في جميع المؤمـنين» (٢تس١: ٦و٧و١٠). لذلك أصبح الرجاء من أقوى العوامل الإيجابية الـتـي جـعـلـت الإنسان قادراً أن يهمل مسرات هذا الزمان الفانية ويتجاوز العالم الحـاضر فيشتاق للانطلاق: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح... لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح.» (في١: ٢١و٢٣)

فـإذا اعـتـبرنا الإيمان أنه قوة الميلاد الجديد و بداية نمو الخليقة الجديدة فينا، فإن الـرجاء هو غاية هذا الميلاد و برهان نضج الخليقة الجديدة، إذ بواسطة الرجاء يسهل على الإنـسـان أن يخلع جسده العتيق، ليس بالإيمان النظري بل بالفعل، على رجاء مـا لا يُـرى: «فـنـثـق ونُـسَـرُّ بالأَولى أن نتغرَّب عن الجسد ونستوطن عند الرب.» (٢كو٥: ٨)

فـالـرجـاء، في الحـقيقة، عندما يتمسك به الإنسان، فإنه يُعبِّر تعبيراً عملياً عن صلاح الله وعمل رحمته فينا بصورة لا يمكن أن تتوقف، وأيضاً يشرح أن ما يتبقى لنا عـنـد الله هـو دائـمـاً أفـضـل ممـا أخذنا. وهكذا، فبالرجاء الحي نتحقق أن مجد الله وصـلاحـه لا يُسْتَنفَذ، وأن الخلاص العظيم الذي دبره الله للإنسان لا يزال مفتوحاً أمامنا، بل ومراحله العظمى والمجيدة سوف نجوزها حتماً في المستقبل أيضاً: «أنتم

الذين بقوة الله محروسون بإيمان **لخلاص مستعد أن يعلن في الزمان الأخير**» (١بط ١ : ٥). ولكننا منذ الآن نستطيع بالرجاء أن ننال عربونها : «**لأننا بالرجاء خلصنا**، ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً؟ ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره **فإننا نتوقعه بالصبر**.» (رو٨ : ٢٤و٢٥)

الرجاء سلسلة نتسلق عليها حتى نبلغ شاطىء العالم الآخر:

أما بالنسبة لعمل الرجاء وقيمته بالنسبة لنا نحن شخصياً، فهو بمثابة السلسلة غير المنظورة المربوطة بشاطىء الحياة الأبدية، والتي نمسك بها الآن ونحن في مركب الجهاد المنظور في وسط بحر العالم المضطرب. وكلما جذبنا هذه السلسلة بالإيمان، تحركت المركب نحو الشاطىء الآخر غير المنظور، كما تفعل المعدّيات على أفرع النيل، أو كما يصفه الرسول بولس بالمرساة التي يطرحها الملاَّح في عمق البحر غير المنظور: «لنمسك بالرجاء الموضوع أمامنا الذي هو لنا كمِرْساة للنفس مؤتمنة وثابتة، تدخل إلى ما داخل الحجاب حيث دخل يسوع كسابقٍ لأجلنا.» (عب٦ : ١٨ــ٢٠)

أي أن التمسك بالرجاء بوعد المسيح سوف يجذبنا ويُدْخلنا إلى ما دخله يسوع المسيح ــ أي السماء التي وجد لنا فيها فداءً أبدياً؛ بل إن الرجاء منذ الآن يجعلنا نحصل على قليل من هذا الوعد، لأن ما وعد به المسيح هو حقيقة سماوية لا بد أن تتم: «الرجاء الموضوع لكم في السموات» (كو١ : ٥)، ونحن ننالها منذ الآن جزئياً كعربون. فالرجاء موهبة تختص بتحقيق مواعيد الله الآتية منذ الآن، والله أعطى الإنسان هذه الموهبة السماوية **ليقوّي بها إيمانه** في الحاضر حتى يتشجع: «الرجاء لا يُخزي.» (رو٥ : ٥)

الرجاء والقيامة:

والبذرة الإلهية التي انبثق منها الرجاء كموهبة إلهية إيمانية، هي قيامة المسيح من بين الأموات، التي بالرغم من أنها كانت تختص بالمستقبل، ولكن المسيح أكملها في الزمان الحاضر لتكون برهاناً لصدق كل مواعيد الله.

لذلك صارت القيامة قوة للرجاء الذي نرجوه في المستقبل، ولكن علينا أن نقبلها منذ الآن. لذلك رسمت لنا قيامة المسيح في الحاضر حق ممارسة كل مواعيد الله الآتية بنفس الرجاء الذي نمارس به قيامتنا منذ الآن باتحادنا بالمسيح يسوع الذي مات ليعطينا موته وقام ليعطينا هذه القيامة كقوة سرية حية: «مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات.» (١بط ١: ٣)

النمو في الرجاء:

وهكذا صار الرجاء موهبة عملية نستطيع أن **نحوز بواسطتها على عطايا المستقبلات، أي نحوز على** قوة القيامة العتيدة ونمارسها ونعيشها منذ الآن. فكما أن الإيمان بموت المسيح عنا يجعلنا متحدين معه بشبه موته الذي أكمله عن العالم كله، **فالرجاء يجعلنا نحصل منذ الآن على غلبة الموت أي على قيامته التي قامها والتي سوف يكملها لنا جسدياً في الدهر الآتي.**

ومن هنا يظهر سر النمو في الرجاء، فبقدر ما ننمو في الإيمان، ننمو في الرجاء. أي بقدر ما ننمو في الموت بالموت عن العالم بالصليب، ننمو في الحياة الأبدية بالقيامة بقوة الروح القدس العامل فينا: «**وليملأكم إله الرجاء** كل سرور وسلام **في الإيمان، لتزدادوا في الرجاء** بقوة الروح القدس.» (رو١٥: ١٣)

الرجاء والمسيح القائم:

والرجاء في المسيحية يشكل أبهج جزء في الإيمان المسيحي، لأنه يمنحنا منذ الآن عربون الخلاص الذي سنناله كاملاً في المستقبل: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلّصاً هو الرب يسوع المسيح» (في٣: ٢٠). كما أن الرجاء يمنحنا حقيقة القيامة وقوتها كعربون نعيش به الآن في صميم الموت، ولكن بالأكثر لأنه يجعلنا نحيا فعلاً مع المسيح القائم والحي الآن ونستمتع به، حيث لا أحد ولا الموت نفسه يمكن أن يفصلنا عن هذه السعادة المشتركة.

فالرجاء ـ بالنسبة لنا كمسيحيين ـ ينقل سعادتنا المهددة وفرحنا المربوط بالأوضاع الزمانية المزعزعة إلى الملكوت الثابت، حيث ننتظر تكميل خلاصنا واستعلان مجد المسيح: «إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس.» (١كو١٥: ١٩)

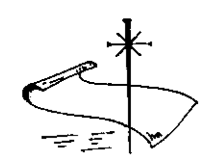
الرجاء والبصيرة:

وموهبة الرجاء موهبة تتعلق ببصيرة الإنسان الروحية. فمواعيد الله، بالرغم من أنها مُعلَنة في الإنجيل بوضوح، إلا أن قوتها تظل عملاً سرياً من أعمال الروح القدس وتحتاج إلى استعداد ذهني لتقبُّلها بلا شك أو فحص، ثم إلى قلب مفتوح لا يكف عن طلب المزيد والملء. لأن المسيح بالرغم من إعلانه لنفسه كابن الله وكمساوٍ للآب وكواهب الحياة وغافر الخطايا ومُعطي الروح القدس، إلا أنه عاد يحذرنا بقوله: «طوبى لمن لا يعثر فيَّ» (مت١١: ٦، لو٧: ٢٣). لأن الذهن الآدمي ذهن عاثر، يملُّ الحقيقة بسرعة وينحرف ناحية مسراته الحسية التافهة. لذلك فموهبة الرجاء تحتاج إلى التصاق كثير بوعد الله وعين شاخصة نحو يقين مجيئه: «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته» (أف١:

١٧ و١٨). «**لذلك منطقوا أحقاء ذهنكم صاحين، فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة.**» (١بط ١:١٣)

الرجاء والطهارة:

كذلك يشدد الإنجيل على أن هذه الموهبة تحتاج إلى تطهير مستمر للحياة الداخلية أولاً بأول حتى تضطرم موهبة الرجاء وتأخذ قوتها فينا، لأن الرجاء متعلق كله بالأمور الطاهرة مثل ظهور المسيح في مجده ونوال مواهب وعطايا الحياة الأبدية المقدسة مع المسيح، كورثة في الأمجاد العليا: «ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو. **وكل من عنده هذا الرجاء به يطهر نفسه كما هو طاهر.**» (١يو٣: ٢و٣)



٣ ـــ المحبـة

المحبة كما جاءت في معناها الروحي في العهد القديم والعهد الجديد وتُرجمت بلفظ «أغابي»، تحمل أعلى وأنبل أنواع الحب الذي يتجه نحو غاية كريمة لانهائية في موضوعه، كما تُعبِّر عن أعمق إحساس للشخصية، وتشرح أقوى اتصال للنفس بالنفس أو بالله.

وحينما أراد الله أن يصف نوع محبته للإنسان، وضعها في رتبة أقوى وأرفع من طبيعة الأمومة التي تربط الأم برضيعها: «هل تنسى الأم رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساكِ!» (إش٤٩: ١٥)، «كإنسان تعزيه أمه هكذا أعزيكم أنا!» (إش٦٦: ١٣). وفي العهد الجديد ارتفعت محبة الله للإنسان أكثر حتى إلى بذل ابنه: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد.» (يو٣: ١٦)

و بنفس هذا التعبير القائم على طبيعة الأمومة يصف الكتاب كيف انسكبت المحبة الإلهية في العهد الجديد في قلوب المؤمنين، فنجد القديس بولس الرسول يصوِّر فعل المحبة كفعل مخاض وولادة: «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم» (غل٤: ١٩). ويعود ويصوِّر المحبة كفعل هدهدة وحنان وتربية: «كنا مترفقين في وسطكم كما **تربي المرضعة** أولادها، هكذا إذ كنا **حانين إليكم** كنا نرضى أن نعطيكم لا إنجيل الله فقط بل أنفسنا أيضاً لأنكم صرتم **محبوبين إلينا**.» (١تس٢: ٧و٨)

محبة الله لنا فوق ما نتصوَّر:

وفي وصف الله لمحبته للبشر العصاة يكشف عن عمق شخصيته بمحبة لا تعرف اليأس: «كنت أجذبهم بحبال البشر، برُبُطِ المحبة ... وشعبي جانحون إلى الارتداد عني ... قد انقلب عليَّ قلبي. اضطرمت مراحمي جميعاً» (هو١١: ٤و٧و٨). وهذا الوصف المؤثر نراه عملياً في العهد الجديد:

«ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا.» (رو٥: ٨)

«الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

«فإني أريد أن تعلموا أي جهاد لي لأجلكم.» (كو٢: ١)

«بعد ما تألمنا قبلاً وبُغي علينا كما تعلمون في فيلبي جاهرنا في إلهنا أن نكلِّمكم بإنجيل الله في جهاد كثير.» (١تس٢: ٢)

«وأما أنا فبكل سرور أُنفِقُ وأُنفَقُ لأجل أنفسكم وإن كنتُ كلما أحبكم أكثر أُحبُّ أقل.» (٢كو١٢: ١٥)

محبة الله أبدية كطبيعته:

وفي موضع آخر يكشف الله طبيعة محبته أنها أبدية، إشارة إلى أنها نابعة من طبيعته: «**ومحبة أبدية أحببتكِ من أجل ذلك أدمتُ لكِ الرحمة**» (إر٣١: ٣). وهذا التعبير نراه محققاً عملياً في العهد الجديد: «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم **لكي نحيا به**» (١يو٤: ٩). ولكن ليس هذا معناه حتمية المحبة «لاإرادياً» عند الله، ولكن معناه أن الله إذا أحب، فهو سيظل إلهاً لمن يحبه بكل معنى الرعاية والرحمة. أما إذا توقف عن المحبة فمعناه أنه توقف عن أن يكون إلهاً مرة واحدة وأن الإنسان يكون قد فَقَدَ الله نفسه !! «ويل لهم أيضاً متى انصرفتُ عنهم ... من أجل سوء أفعالهم أطردهم من بيتي، لا أعود أحبهم ... فيكونوا تائهين بين الأمم» (هو٩: ١٢و١٥و١٧). وفي العهد الجديد أيضاً يظهر

بوضوح هذا الاتجاه نفسه مع شرح علة غضب الله ورفضه الأبدي: «الآب يحب الابن ... والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله.» (يو٣: ٣٥و٣٦)

محبة الله تخلق استحقاق الإنسان للرحمة:

• وناموس الاختيار كله مبني على طبيعة محبة الله السبَّاقة، فهو دائماً أبداً يحب الإنسان أولاً، ومحبة الله هي التي تخلق استحقاق الإنسان لرحمة الله: «ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم ... بل من محبة الرب إياكم» (تث٧: ٧و٨). ولكن ليس لناموس الحب والاختيار سلطان حتمي على الله، فهو كما يسبق ويختار ويحب، هكذا هو أيضاً قادر أن يرذل من اختاره وأحبه إذا لم يذعن لمطالب البنوة أو التبني التي ينالها مجاناً بمقتضى هذا الاختيار والحب: «**وأما من جهة الاختيار فهم أحباء** من أجل الآباء ... **ومن جهة الإنجيل** هم أعداء من أجلكم» (رو١١: ٢٨)، «فهوذا لطف الله وصرامته، أما الصرامة فعلى الذين سقطوا وأما اللطف فلك أن ثبتَّ في اللطف، وإلا فأنت أيضاً ستُقْطَع.» (رو١١: ٢٢)

الله يهب لنا نفس إمكانية حبه الفائق:

والله حينما يطالبنا بالمحبة فهو يطالبنا بالمحبة ولكن من نفس نوع محبته، أي محبة من كل كياننا: «**تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك**» (تث٦: ٥). ولكن في هذه الوصية يبدو الأمر شاقاً كل المشقة؛ بل عسيراً وربما مستحيلاً، إذ يظهر أنه متعارض فعلاً مع طبيعة الإنسان. فما سر هذه الوصية؟ وهل يمكن أن يطالبنا الله بالمحبة من كل كياننا دون أن يسبق ويهب إمكانياتها؟ هذا السر يكشفه الله في موضع آخر: «ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا.» (تث٣٠: ٦)

أما المعنى السري لختانة القلب فيدركه العاشقون لله، فهو يشير إلى جرحه بالروح جرح محبة يصبح بعده الإنسان في عذاب من الحب الذي لا يُشْبع ولا يَروي: «إني مريضة حباً.» (نش ٢: ٥)

المحبة تستعلن بالتقوى والعبادة:

وفي العهد الجديد تنكشف أسبقية عمل الله بالمحبة في حياتنا بصورة واضحة وشديدة: «في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كَفَّارة لخطايانا ... نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٠و١٩). والمحبة التي يطالبنا بها الله لنفسه ليست منفصلة في حد ذاتها، ولكنها ملتحمة بالعبادة. فالعبادة المخلصة والتقوى لله هي فعالية المحبة الصادقة: «ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتقي الرب إلهك لتسلك في كل طرقه وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك؟» (تث ١٠: ١٢). و بهذا يكشف الله طبيعته المُحبة التي ينبغي أن نحبه بها، فهي لا تُستعلن إلا في **التقوى والعبادة**.

صلة المحبة بالإيمان الفعّال:

وفي العهد الجديد يكشف الله الصلة الجوهرية بين محبته وعبادته بقوله: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» (يو١٤: ١٥). فمن المستحيل أن يقبل الله محبتنا إذا لم يكن لها عمل إيماني في عبادة مخلصة وتقوى. كما أنه لا يقبل إيماننا إذا لم يكن له عمل محبة: «الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ١٦). ومن وصية الله بخصوص محبة الإنسان لقريبه على أساس أن تكون مساوية لمحبة الإنسان لنفسه، تتضح طبيعة المحبة أكثر أنها فائقة على الغرائز الطبيعية وعلى الدوافع النفسية الذاتية. ومن ذلك يتبين أن وراء هذه الوصية قوة إلهية سرية كما سبق ورأينا في (تث ٣٠: ٦و٧)، حيث يسبق الله ويختن بسكين المحبة قلب من يحبه، فيصبح الإنسان قادراً أن يحب قريبه بالتالي حسب الوصية أو حسب الله!... «أيها الأحباء

لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، **وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.** ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (يو٤: ٧و٨)، «ليس أنتم اخترتموني بل **أنا اخترتكم وأقمتكم** لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم **لكي يعطيكم الآب** كل ما طلبتم باسمي. بهذا أوصيكم حتى **تحبوا بعضكم بعضاً.**» (يو١٥: ١٦و١٧)

ولكي يكشف المسيح عن عمق مستوى المحبة التي يطالبنا الله بها لكي نحب بعضنا بعضاً، وسّع حدودها فجعلها تشمل الأعداء: «أحبوا أعداءكم» (مت٥: ٤٤، لو٦: ٢٧)، وهنا تظهر المحبة أنها ولا بد إلهية ومستمدة بالضرورة من الله.

مصدر المحبة:

في العهد القديم كان الله يسبق ويختن قلوب مختاريه سراً فيُشعلها بعنصر المحبة الإلهية، فكانت مُطالَبة الله بالمحبة والعبادة من أولاده حقاً معقولاً ومشروعاً له. ولما أعطى الله الناموس للشعب، عرّفهم بشخصيته كخالق، ثم كشف محبته وأثبتها لهم عياناً بياناً في كل الظروف بإحسانات تفوق الوصف ومجاملات تقطر بالمحبة، فكانت مطالبته إياهم بالمحبة والعبادة أمراً مشروعاً تحتمه المعرفة ويحتمه الناموس وتحتمه العلاقات الودية.

جرح المحبة الدامي على الصليب وفي قلبي:

وفي العهد الجديد توضحت محبة الله بطريقة مذهلة للعقل. فظهور الله في الجسد واتضاعه في الهيئة كإنسان لكي يصير مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية مُجرَّباً بكل الآلام وأتعاب العالم ومظالم الأشرار وحسد الشيطان، ثم قبوله ــ في النهاية ــ الموت على الصليب فدية لنا، هذه كلها جعلت محبة الله ذات سلطان شديد على القلب، كأنها سكين هادئة امتدت من خلال تعقيدات الخطية والشهوة والمسرات

الجسدية والأنانية حتى وصلت إلى أعماق القلب، وهناك ختنته بجرح محبة لا يستطيع الإنسان بعد أن يذوقها أن ينساها أو يتجاهلها. فابن الله المصلوب «من أجلي» صورة قادرة ـــ إذا انطبعت على قلبي ـــ أن تستنزف مني كل محبتي: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل ٢ : ٢٠)!!

ولو تتبعنا المحبة الإلهية كيف وصلت إلينا والمصدر الذي انحدرت منه، لوجدناها أنها هي بعينها التي كانت أولاً قائمة بين الآب والابن، ثم نزلت إلينا مع الابن المحمَّل بمحبة أبيه، ثم وقعت في نصيبنا لما ارتضى الآب أن يسفك دم ابنه ويُعطى لنا. فنحن نشرب الآن محبة الآب للابن ومحبة الابن للآب في سر الدم الإلهي: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي ... الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني» (يو١٠ : ١٧ و١٦ : ٢٧). ولكن يستحيل أن نأخذ لأنفسنا قوة المحبة التي من الآب للابن (وهي التبني بالنسبة لنا)، أو دالة المحبة التي من الابن للآب التي وهبها لنا لنصرخ بها «يا أبا الآب»، بدون المسيح. فالمسيح فينا هو الذي يهبنا بواسطة الروح القدس قوة المحبة الإلهية ودالتها: «الذي به لنا جراءة ـــ دالة ـــ وقدوم بإيمانه عن ثقة.» (أف٣ : ١٢)

ولكن الله لم يكتفِ بأن يجعل عنصر المحبة الإلهية مجرد صورة تنطبع على القلب أو ثمرة جهاد لتأمل الصليب والمصلوب والدماء المنحدرة على الأرض، بل أضاف إلى ذلك بأن هيأ لنا من الدم المسفوك والجسد الممزق نصيباً نأخذه بسرٍّ لا يُدْرَك، فيستقر في أعماقنا لنتحد بتلك المحبة المصلوبة. وحينئذ نؤهَّل لقبول روح الحياة الذي هو روح المحبة، التي إذا مسَّت قلب الإنسان أشعلته بلهيب مقدس لا ينحصر قط حتى تضطرم المحبة في كل كيان الإنسان اضطراماً: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا» (رو٥ : ٥)، «جئت لألقي ناراً ـــ كناية عن طبيعة المحبة ـــ على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت؟» (لو١٢ : ٤٩)

الصليب مصدر النار المتأججة للحب:

و بذلك صارت محبة الإنسان الضعيفة بسبب طبيعته الجسدية العاجزة، يمكن لو أنها قبلت المسيح المصلوب واستنشقت حبه بالروح القدس أن تنفكَّ من عقال ضعفها، أي من العجز الناشيء عن الخطية والشهوة والأنانية، لتنطلق بقوة سرية خارقة كالنار لا يقف أمامها عائق إلا وغلبته وحولته لطبيعتها. و بالنهاية تتصل المحبة البشرية بمصدرها الإلهي وتتحد به اتحاد الفتيلة المدخنة بنار الله.

«ليحلَّ **المسيح بالإيمان في قلوبكم**، وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو، **وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.**» (أف٣: ١٧ــ١٩)

طبيعة المحبة المتسعة وأعمالها:

قيمة المحبة في الحياة المسيحية تظهر حينما نطرق موضوع الاتحاد أو حياة الشركة، سواء كان ذلك بالنسبة للإنسان مع أخيه، أو بالنسبة للإنسان مع الله، أو بالنسبة للكنيسة كلها مع الله، حيث تصبح طبيعة المحبة هي الأساس الذي لا يمكن أن تتم أية وحدة بدونه.

فبدون المحبة تصبح حياة الشركة أمراً مستحيلاً، أو جهاداً ضائعاً لا رجاء فيه. فغياب المحبة يفسد قوة الإيمان ويبطل قدرة المعرفة ويضيِّع كل جهود الأعمال هباءً: «إن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً» (١كو١٣: ٢). لماذا؟ لأن المحبة هي من طبيعة الله: «الله محبة» (١يو٤: ٨)، **فغياب المحبة يعني غياب الله**، و بدون الله يصبح كل إيمان وجهاد عبثاً في عبثٍ.

ونحن لو فحصنا الإيمان بالله أو معرفة الله أو عبادة الله أو كافة الأعمال التي تُعمل باسم الله، نجدها كلها تعتمد على مقدار الاستجابة التي يستجيب بها الإنسان لمحبة الله، حيث تكون دوافعها كلها منبثقة من العلاقة الشخصية التي تربط الإنسان بالله.

فالإيمان بالله يعتمد في قوته وثباته على مقدار مبادلتنا لله محبة بمحبة، ونمو الإيمان يتوقف على تفجُّر طبيعة المحبة الكامنة فينا، ووصول الإيمان إلى حالة الاعتماد الكلي على الله التي تُعتبر أقصى غاية الإيمان، لا يصل إليها الإنسان إلا إذا تقوَّت علاقات المحبة الشخصية جداً.

أما **معرفة الله** فلا تنمو بالإدراك العقلي وحده، لأن غنى الله وجماله وقوته الفائقة تتركز كلها في محبته. لذلك فلا سبيل إلى التعمق في معرفة الله إلا بالتودد الشخصي.

وأما **عبادة الله** فتقوم على أساس الإيمان والمعرفة، وهذا يقوم على المحبة. بالإضافة إلى أن عبادة الله هي استجابة لصلاحه الذي بلغ أقصاه في تقديم ابنه فدية عنا لخلاصنا ولمنحنا حق الحياة الأبدية، وهذه كلها أعمال محبة من جهته ولا يمكن تقديرها بالعقل وحده إذ يلزم أن نقيسها بالمحبة، وحينئذ تصبح عبادتنا له من نوع تفضُّله علينا.

وأما **الأعمال التي نعملها باسم الله** فهي إذا خلت من عنصر المحبة الإلهية تصير أعمالاً ميتة تخترعها الذات البشرية لمصلحتها الشخصية. ولا سبيل لتأمين الأعمال ضد خداع النفس إلا إذا كانت المحبة الإلهية متحكمة فيها، أي محبة الإنسان لقريبه ومحبة الإنسان لله على أساس البذل وليس المنفعة: «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١يو٣: ١٦)

لـذلـك تحـتـل المحبة بالنسبة للحياة المسيحية مركزاً هاماً جداً، فهي كما يقول القـديـس بـولـس: «ربـاط الـكـمـال σύνδεσμος τῆς τελειότητος » (كو٣: ١٤)، الـذي يـربط الإنسان بأخيه والإنسان بالله، أي أنها العامل الفعّال والأساسي لتكوين ملكوت الله وقيامه فينا.

العنصر الأخلاقي الذي في المحبة:

«العنصر الإلهي» سائد في المحبة المسيحية، لذلك أصبحت المحبة في السلوك والأخـلاق بمـثـابـة قلعة شامخة تتكسر عليها كل التيارات الدنيئة المنبعثة من الغرائز السفلى في الإنسان.

فـالذي يملك قوة المحبة الإلهية بشقّيها، أي حرارة المحبة نحو الله وحرارة المحبة نحـو الآخرين، يستطيع أن يشق طريقه وسط كل الظروف الصعبة التي يقع فيها الإنسـان فـريسة للدوافع الشريرة، سواء في الداخل من نفسه وغرائزه أو في الخارج من الأعداء والمخاصمين.

الوجـه السلبي:

(١ كو١٣: ٤–٦ و٨):

فـالمحـبـة لا تحـسـد: لأن الحـسـد إحـسـاس بـالنقص والطموح معاً، والمحبة إحساس بالملء والفيض، والحسد عين ناظرة إلى الأرض، أما المحبة فعين ناظرة إلى السموات.

والمحـبـة لا تـتـفاخر: فالمفتخر بنفسه ومقدرته إنسان سهى عليه أن الله مصدر خيره ووجوده وأنـه لا بـد سيترك بموته كل مجده إلى تراب الأرض. أما المحبة فلا تتفاخر لأنها مشغولة بردِّ الجميل لله واقتسام الخير مع الآخرين.

المحـبـة لا تـنـتـفـخ: المنتفخ إنسان احتجز المجد لنفسه فأحس أنه أفضل من

غيره ، أما المحبة فتتخلص مما يزيد عن حاجتها وتعطي من أعوازها .

المحبة لا تقبح: القباحة أن يسلك الإنسان بعدم لياقة إرضاءً لنزعاته الدنيوية أو دفاعاً عن حقوقه المسلوبة . أما المحبة فقد فطمت نفسها حتى عن الأشياء المباحة .

المحبة لا تطلب ما لنفسها: من يطلب ما لنفسه يعيش في دنيا ذاته ، والمحبة لا تطلب ما لنفسها لأنها تعيش من أجل الآخرين في دنيا الله .

المحبة لا تحتد: الذي يحتد يستسلم لضيق نفسه . والمحبة تسلم نفسها للموت من أجل نقص الآخرين .

المحبة لا تظن السوء: الذي يظن السوء إما يكون قد بيَّت على العداوة والخصومة ، أو يكون قد سلَّم عقله للباطل ، أو يكون قد انطبع فكره بشَرِّ الناس . والمحبة تقف من الحوادث والأمور موقف الله الذي يجعل الأمور تعمل معاً للخير ، كما أن المحبة لا تقبل أن تحيا إلا في سلام .

المحبة لا تفرح بالإثم: الذي يفرح بالإثم أثيم ، فهو يشتهي أن يسقط كل الناس كما سقط هو. وهو يسَرُّ بالشرور حينما تداهم الناس و بالأخص خصومه ، لأنه يطلب أن يتمجد بهوان الآخرين ويزكي نفسه بانكسار أعدائه . أما المحبة فتقيم الساقطين ، وتستر على إثم الآثمين ، وتبكي على انكسار الآخرين .

المحبة لا تسقط أبداً: الإنسان يسقط عندما يكون وحده وليس من يسنده سواء بسبب كبريائه أو صغر نفسه . أما المحبة فيسندها الله ، لذلك فهي لن تسقط أبداً .

الوجه الإيجابي:

(١ كو١٣: ٤و٦و٧):

المحبة تتأنى: لا عجب أن يضع القديس بولس الرسول هذه الصفة في أول قائمة صفات المحبة، مشيراً إلى عنصرها الإلهي. فالله طويل الأناة، وهكذا ينبغي أن يكون أولاده. والتأني هو الصفة المختصة بمعاملة الضعفاء والخطاة، وإذا حازها الإنسان كانت له أقوى عوامل النجاح في خدمته.

والملاحظ أن هذه الصفة وإن كانت تصلح لتربية الجسد، فهي تختص بالأكثر لتهذيب النفوس. فقد توجد نفس قادرة أن تستوعب هذا الحق في لحظة، وقد توجد نفس لا تستطيع أن تستوعب هذا الحق في عشر سنين.

المحبة ترفق: وهذه أيضاً صفة من صفات الله، وهي تعني الترفق والرحمة بالخطاة والضعفاء، والذي يتأنى بالضرورة يترفق، ومن هنا نرى تسلسلاً دقيقاً في صفات المحبة وكلها ذات اتجاه بنائي لنفسية الإنسان الضعيف أو العاجز.

المحبة تفرح بالحق: هنا ينكشف جوهر المحبة الذي تنبني عليه والذي تنجذب إليه، فالمحبة منحدرة أصلاً من الله، لذلك لا تسعد ولا تفرح إلا بما يوصلها إلى موطنها. فالإنسان المحب حينما يكون فرحه ومسرته بالحق فقط، يكون ذلك أعظم دليل أنه يسعى إلى موطنه في السماء مصدر الحق!

المحبة تحتمل كل شيء: هذه الصفة تؤمِّن للمحبة وصولها إلى الغاية، وهي تفيد الكفاءة في حمل الإساءة إلى أقصى حدودها، وتجاوز الإثارة، وإهمال المناوأة، وغض الطرف عن الخسارات والاعتداءات، كل ذلك بدون رد فعل لأن النفس تستمد قوتها وسلامها من مصدر القوة والسلام الذي لا يُحدُّ.

المحبة تصدق كل شيء: لأن المحبة واثقة من هدفها، فهي من جانبها تقبل

كل وضع ولا تشك في إمكانياتها من جهة الاحتفاظ بقدرتها في العبور فوق الفخاخ والصعوبات التي يبثها العدو في الطريق. وهي وإن كانت تصدق كل شيء إلا أنها تكشف الكذب وتفضحه وتوقف عمله حينما تواجهه بإيجابيتها المتفائلة. وهي تصدق كل شيء لأنها تستطيع أن تجعل المعوجّات مستقيمة والعراقيب سهلة!

المحبة ترجو كل شيء: لأنها متفائلة لا تفقد الأمل إطلاقاً في الفتيلة المدخنة ولا في القصبة المرضوضة ولا في المريض ثماني وثلاثين سنة ولا في التي ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة (يو٥: ١-١٠، لو١٣: ١٠-١٣). المحبة متسلحة برجاء حي لا تستنفذه نية المعاند الشريرة ولا خبث الشيطان ولا غباوة الإنسان ولا حتى ضعف الجسد. فالمحبة ترجو طالما للرجاء باب مفتوح. فالمحبة والرجاء في تعاهد أبدي.

المحبة تصبر على كل شيء: المحبة طريقها في وسط العالم وعر مليء بالمقاومات والاستهزاءات والخيانات والخداع والاستغلال والمساومات، وهي لا تميل هنا أو هناك، بل في طريقها الصاعد تسير صابرة على كل شيء.

علاقة الإيمان والرجاء والمحبة

في مرتين يذكر القديس بولس الرسول هذه الفضائل الإلهية الثلاث مقترنة معاً:

١ ـــ «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة.» (١كو١٣: ١٣)

٢ ـــ «متذكرين بلا انقطاع عمل إيمانكم وتعب محبتكم وصبر رجائكم ربنا يسوع المسيح.» (١تس١: ٣)

أما سر وضع المحبة في درجة أعظم من الإيمان والرجاء، فذلك لأن الإيمان والرجاء يختصان بالجهاد الحاضر فقط، و بعد ذلك سيبطل الإيمان، والرجاء عندما يتحقق سيفقد وجوده. أما المحبة فهي قائمة منذ البدء وإلى الأبد لأنها طبيعة الله الفعّالة في الكون والخليقة كلها، ولن يبطل عملها بل يستمر ويزداد في الحياة الأبدية بدون توقف: «المحبة لا تسقط أبداً.» (١كو١٣: ٨)

ولهذا السبب عينه فإن الإيمان إذا لم يكن «عاملاً بالمحبة» فهو يعتبر إيماناً زمنياً، أي تتحكم فيه عوامل أرضية فقط، ولذلك يصبح باطلاً أو حسب تعبير القديس بولس الرسول (في ١كو١٣) يُحسَبُ كلا شيء. ومن هنا صار ارتباط الإيمان بالمحبة أمراً جوهرياً، باعتبار أن المحبة ترفع الإيمان من مستوى الثقة بالله من أجل الأمور الزمنية إلى الثقة بالله من أجل الأمور الأبدية!! فالإيمان والمحبة يعبّران في اتصالهما عن الإنسان والله.

ومن الأمور المحققة إنجيلياً وعملياً أن من استطاع بالحقيقة أن يحب الإخوة بالحب الإلهي يكون قد «انتقل من الموت إلى الحياة» (١يو٣: ١٤)، والذي «يثبت في المحبة ــ الإلهية ــ يثبت في الله» (١يو٤: ١٦)، والإنسان الثابت في محبته لله هو الإنسان الذي قد وُلِدَ من الله: «من يحب فقد وُلد من الله.» (١يو٤: ٧)

أما التحام الرجاء بالإيمان فهو أمر حتمي، لأن نصف الإيمان متعلق بانتظار تحقيق وعود الله الآتية التي بدونها لا يمكن أن يُحسب الإيمان كاملاً. فنحن بالإيمان لا زلنا ننتظر «التبني فداء أجسادنا» (رو٨: ٢٣). كما أننا ننتظر تكميل خلاصنا «ونتوقعه بالصبر»، وننتظر تكميل برّنا الناقص: «فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر» (غل٥: ٥)، «وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي» (قانون الإيمان)، ننتظر مجيء المسيح عندما «يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات» (قانون الإيمان). إذاً، فالرجاء هو نصف الإيمان المختص بالمستقبلات، و بهذا يظهر الالتحام الشديد بين الإيمان والرجاء.

وقد يبدو أن الرجاء يخلو من العمل والجهاد بسبب كونه يختص بالأمور المستقبلة، ولكن الحقيقة أن الرجاء له عمل كبير في الحاضر لأنه منبع القوة التي تهب الإنسان قوة مواجهة مع نقص جهاده وإخفاق إيمانه وأتعاب الحاضر ومصادمة العثرات التي في العالم. إذ بدون الرجاء في حياة جديدة سنحياها مع الله غير هذه الحياة الميتة، و بدون انتظار تكميل فدائنا الذي نحسه الآن ناقصاً بسبب الجسد، و بدون توقع تكميل خلاصنا الذي حُزْناه الآن جزئياً ولا زلنا نئن في أنفسنا بسبب عجزنا، بدون ذلك كله لا نستطيع أن نرتاح في أنفسنا لِمَا أكملناه من الإيمان أو نطمئن لخلاصنا. فعملنا وجهادنا وإيماننا وخلاصنا بدون الرجاء في المستقبلات أمر مستحيل!

وواضح أن **عمل الرجاء يختص بالصبر** على كل نقائص الحاضر سواء كانت فينا أو خارجنا، لذلك أصبح الرجاء مصدر راحة وعزاء عظيمين بل وافتخار للإنسان. وكما يقول القديس بولس الرسول: «**ونفتخر على رجاء مجد الله**» (رو٥: ٢). ثم يعود ويكشف عن قيمة الضيقات كيف أصبحت تزكي الرجاء فصارت بذلك مقبولة جداً: «بل نفتخر أيضاً في الضيقات، عالمين أن الضيق ينشىء صبراً والصبر ـــ امتحان ـــ للتزكية، والتزكية رجاءً.» (رو٥: ٣و٤)

إذاً، فلا غنى إطلاقاً عن الرجاء في مباشرة جهاد الإيمان في الحاضر، لأن «الإيمان هو الثقة بما يُرجى!» (عب١١: ١). على أن كلًّا من الإيمان والرجاء لا يُحسَبان بحد ذاتهما فضيلتين بشريَّتين فقط؛ بل هما أيضاً و بالنهاية قوتان إلهيتان نستمدهما في كل عمل وكل خطوة من الله: «حتى إن إيمانكم ورجاءكم هما في الله.» (١بط١: ٢١)

والتحام الرجاء بالمحبة هو في الواقع سر قوة الرجاء كما هو سر قوة المحبة. لأن مطالب المحبة العالية تتعارض مع حقيقة الواقع الزمني، فمن يتبع المحبة تماماً فهو لا بد وأن يخسر أشياء زمنية كثيرة ويفقد مواقف بشرية لا حصر لها ويتصادم مع أعماق ذاته، فإذا لم يتسلح الإنسان بالرجاء في المسيح الآتي الذي سيقيِّم خسارتنا الحاضرة بالمجد العتيد في الحياة الأخرى الأبدية التي فيها كل الجزاء الحسن وكل التعويض الروحي الكامل، فإن الإنسان يخور أمام خسارات الحاضر وأمام نوازع ذاته التي تميل إلى السعادة المؤقتة والسلام الزمني.

كذلك فإن التحام المحبة بالرجاء تعطي الرجاء واقعية قوية، لأن مجرد الرجاء الفكري في الأمور المستقبلة لا يكفي للتعويض عن الخسائر الجائرة التي تهز كيان الإنسان كله.

إذاً ، لا بد أن يكون الرجاء ماسكاً بشخص المسيح نفسه بصفته الموجود الآن و بصفته الآتي أيضاً ، أو بلغة سفر الرؤيا : « الكائن والذي كان والذي يأتي » (رؤ١ : ٨). وحينئذٍ يصبح الرجاء ماسكاً منذ الآن بشخص الذي نرجوه وننتظره ، وحينئذٍ نستطيع أن نعتمد عليه . ونحن لا نمسك المسيح الآن إلا بالمحبة ، وهذا الرجاء الممسك بالمسيح الحي يسميه القديس بطرس الرسول " الرجاء الحي " : « حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية **لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح** من الأموات » (١ بط ١ : ٣). أما القديس بولس الرسول فيعتبر أن **نفس شخص المسيح بحد ذاته هو هو رجاؤنا** الذي نتشدد به ونحارب به ونغلب به : « المسيح رجائنا » (١ تي ١ : ١)، « المسيح فيكم رجاء المجد » (كو١ : ٢٧). بهذا يصبح الرجاء ، وهو ماسك بالمسيح برباط المحبة ، قوة قادرة بالله على هدم حصون وكل علو يرتفع ضد معرفة المسيح في الحاضر (راجع ٢ كو١٠ : ٤).

وفي النهاية ، ينبهنا القديس بولس الرسول إلى نوع مجال كل من الإيمان والرجاء والمحبة عندما يعطي لكل فضيلة اختصاص عملها في الحاضر: « عمل إيمانكم وتعب محبتكم وصبر رجائكم » (١ تس١ : ٣). ومنها ينكشف سر الحياة المسيحية : **فالعمل والتعب والصبر،** هي المجهود البشري المقابل لعطية الله في الإيمان والمحبة والرجاء . وبهذا تكون هذه الفضائل الإلهية المتصلة اتصالاً وثيقاً بعضها ببعض والتي تحتوي في ذاتها كل إمكانية بشرية وكل عطية إلهية للوصول إلى الحياة الأبدية ، تكون هي الدعامة العظمى التي يقوم عليها كل منهج الأخلاق والسلوك في الحياة المسيحية وكل فضيلة ممكنة .

الباب الثاني

فضائل مترتبة على فضائل

أولاً : الفضائل النسكية في الإنجيل

ثانياً : توجيهات لممارسة وصايا النسك

أولاً : الفضائل النسكية في الإنجيل

١ ـ الاتضاع

أولاً ـ الاتضاع بالنسبة للعبادة (أي بالنسبة لله) :

هذه الفضيلة هي أول ثمرة لمجموعة الفضائل الإلهية المتماسكة : «الإيمان والرجاء والمحبة» . وهي الفضيلة المسيحية الأُولى التي تفصل المسيحي عن غيره بالنسبة لتقييم الطبيعة البشرية وصلتها بالطبيعة الإلهية .

ومنشأ هذه الفضيلة في البداية الأُولى هو الإحساس الغامر بعظمة الله القدير ، يقابله الإحساس بضعف الإنسان وكافة الخليقة ، مما يؤدي في الحال إلى شعور بالصغر والانسحاق يلازمه حتمية الاعتماد المطلق على الله كمُعطي الحياة والقوة والفهم وخبز اليوم .

وأول نسيج لطبيعة التواضع بدأ الله يغرسه في طبيعة الإنسان هو ما صنعه الرب في تدبيره مع شعب إسرائيل ليعيشوا حياة العبيد المذّلين تحت يد دولة مصر القوية لمحق كل نزعات الطبيعة الأرستقراطية والتعالي الطبقي أو العنصري : «فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلُّوهم» (خر١ : ١١)، «فيأخذ الكاهن السلة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب إلهك . ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك : أراميًّا تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك ... فأساء إلينا المصريون وثقلوا علينا وجعلوا علينا عبودية قاسية ، فلما صرخنا إلى الرب إله آبائنا سمع الرب صوتنا ورأى مشقتنا وتعبنا وضيقنا فأخرجنا .» (تث٢٦ : ٤ـ٧)

ومن هذا التدبير الإلهي الذي صنعه الله مع شعب إسرائيل الذي هو رمز لكل

نفس مدعوَّة لميراث ملكوت الله، يتضح منهج الله في صياغة طبيعة الإنسان وضغطه بالاتضاع لكي يليق أن نعيش في ملكوت الله الذي يخلو بالضرورة من نزعة الكبرياء والتعالي: «الرب يميت ويحيي، يُهبط إلى الهاوية ويصعد. الرب يُفقر ويُغني، يضع ويرفع. يقيم المسكين من التراب، يرفع الفقير من المزبلة... **ليس بالقوة يغلب إنسانٌ**» (١صم٢: ٦ــ٩). وهنا إشارة إلى أن المال والقوة ــ أية قوة ــ اللذين هما مصدر كبرياء الإنسان وعتوه، هما في يد الله.

والقصد الأول من الاتضاع الذي يجلبه الرب على الإنسان سواء بالإفقار أو بالإذلال تحت الظروف القاسية، هو أن يعلم الإنسان ويدرك تماماً أن الله في السماء عظيم وقادر ومتسلط، وأن الإنسان على الأرض ضعيف ومسكين ومحتاج دائماً: «وتتذكر كل الطريق التي فيها سار بك الرب إلهك... فأذلَّك وأجاعَك وأطعمَك المن ... لكي يعلِّمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان؛ بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان ... فاعلم في قلبك أنه كما يؤدبُ الإنسانُ ابنه قد أدَّبك الربُّ إلهك.» (تث٨: ٢ــ٥)

لذلك نجد أن خلاصة تعاليم الأنبياء عن صفات الله ومطالبه من الإنسان تتلخص هكذا: «قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالحٌ، وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحبَّ الرحمة **وتسلك متواضعاً** مع إلهك.» (ميخا٦: ٨)

الاتضاع المريض:

ولكن يستحيل أن يقف ميزان الطبيعة البشري تجاه جبروت الله العظيم الخالق عند هذا الحد! إذ يميل الإحساس عند الإنسان إلى الشعور المُلحّ بالميل إلى التحرر من نير هذه السلطة المطلقة، وذلك إما بأن ينمو عنصر مضاد من التبرير الذاتي يحرر به الإنسان نفسه من الالتزام بالخضوع المطلق لله، وذلك إما بالاكتفاء بممارسة الديانة الشكلية، وإما بحدوث انشقاق داخلي على هيئة تباعُد وهروب يفصل

الإنسان عن الله ويزداد هذا الانشقاق حتى يبلغ إلى أقصاه وينتهي الإنسان بإحساس وهمي أنه لم يعُد تحت سلطان الله المطلق. وفي كلا هذين الوضعين ينشأ عند الإنسان إحساس بصغر النفس والانسحاق كخاطىء إزاء سلطان الله القوي، مع الشعور بعدم الاستحقاق لشيء من نعم الله، إنما بصورة سلبية يلازمها دائماً الخوف من الله والخشية والرعبة أحياناً من نقمته.

هذا هو الاتضاع السلبي وهو اتضاع كاذب لا يفيد الإنسان شيئاً ويُزيد هوة البعد بين الإنسان والله.

الاتضاع كفضيلة متكاملة للعبادة:

هنا تجيء المسيحية بإمكانياتها الفائقة وتضيف إلى هذا الإحساس السلبي عنصراً إلهياً جديداً قوامه **الإيمان** بالمسيح الفادي، **والرجاء بالخلاص الذي أكمله للخطاة، والثقة بمحبة الله** من نحو الضعفاء والمنسحقين. ومن هذه الثلاثة ينمو إحساس يلاشي البعد الذي كان يفصل الإنسان الضعيف المنسحق الخاطىء عن الله القدوس العظيم الأبدي.

وبذلك يلتحم الإحساس السلبي للاتضاع بالإحساس الإيجابي له، فينشأ الاتضاع الإلهي الكامل الذي بواسطته يرى الإنسان نفسه قد صار مستحقاً لشركة الحياة مع الله ونوال نعمته وتقديسه بالرغم من ضعفه وانسحاقه بخطاياه.

وهنا يلازم الاتضاع الصحيح إحساسٌ بنويٌّ بقُرب الله كأب والاتصال الدائم برحمته: «لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا.» (رو٥: ٨)

التواضع كموهبة إيمانية:

لا يمكن أن يُعتبَر الاتضاع فضيلة إلهية كاملة إلا إذا كان يحوي أولاً العنصر السلبي للاتضاع، أي الإحساس بضعف الإنسان وعدم استحقاقه لشيء من نِعَم

الله وعدم نفع الطبيعة البشرية بكافة إمكانياتها وكفاءاتها للحصول على رضى الله أو على تقديس ذاتها. ثم يلزم حتماً أن يسود على هذا العنصر **البشري السلبي** للاتضاع **العنصر الإلهي الإيجابي** الذي وُهِبَ لنا في العهد الجديد كموهبة إيمانية، وذلك باتضاع ابن الله وأخْذِه صورة عبد وقبولِه المذلة والهوان والآلام والصليب: «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، **لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد** صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان **وضَعَ نفسه وأطاع حتى الموت** موت الصليب» (في ٢: ٦-٨)، ويعلق القديس بولس الرسول على هذا الإجراء الخطير الذي أجراه ابن الله في نفسه أنه عمل موهوب لنا من الله، ونحن ملتزمون أن نقبل طبيعته الاتضاعية لتكون طبيعة لنا نحن أيضاً: «**فليكن فيكم هذا الفكر** الذي في المسيح يسوع.» (في ٢: ٥)

فإن فضيلة الاتضاع الكامل الموهوبة لنا في المسيحية هي في حقيقتها تقابُلٌ بين تواضع الإنسان السلبي وتواضع المسيح الإيجابي، يتم بواسطة اتحاد بين ضعف الإنسان وضياعه وقوة الله ووجوده! أي أن التواضع في الإيمان المسيحي «قوة في ضعف» أو «ضعف في قوة»، أي حينما أصير كلاشيء في ذاتي وبلا قوة ولا وجود، أتأهَّل للوجود في مجال قوة الله ووجوده: «حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي» (٢كو١٢: ١٠). والاتضاع بهذه الصورة هو بالضرورة عمل إلهي ونعمة!! فإذا لم يُضِفْ الإنسان ضعفه باستمرار إلى قوة الله أو يُضِف قوة الله إلى ضعفه، فإنه حتماً يبلغ إما إلى الاتضاع السلبي الذي ينتهي بالإنسان إلى مرض صغر النفس والتشاؤم واليأس، وإما ينحرف إلى التمسك فقط بقوة الله وينسى ضعفه فيسقط في الكبرياء الديني الخطير.

التواضع كموهبة محبة:

ولكن من جهة أخرى أسبق وأعمق، نجد أن الاتضاع كفضيلة عظمى في

المسيحية منبثق أصلاً من المحبة الإلهية ذاتها !! لأنه لولا الاتحاد الذي تم بين قوة الله وضعف الإنسان الذي ظهر واستُعلِن في المسيح، ما عرفت البشرية التواضع الكامل كفضيلة إلهية عظمى. فإذا عرفنا أن نزول ابن الله من السماء وتجسده في هيئة عبد ثم قبوله مذلة الآلام والصلب هو فعل محبة إلهية فائقة من نحو الإنسان: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢ : ٢٠)، فحينئذٍ ندرك بصورة قاطعة أن التواضع الكامل هو أصلاً مبني على المحبة ومنبثق منها !

إذاً، فسِرُّ الاتضاع الكامل الذي وُهِبَ للإنسان هو المحبة، المحبة المتبادلة بين الله الكامل والإنسان الضعيف، بين الخاطىء اليائس من إمكانياته و بين المسيح الذي سفك دمه ليعطيني كل قوته وقداسته !!

ومن هنا يبرز لفضيلة الاتضاع الكامل وجه من أجمل الوجوه وهو المحبة، المحبة الإلهية التي لا تعمل إلا في الانسحاق !!

التواضع ومخافة الله:

ولكن هذه الإيجابية الإلهية «المحبة المتنازلة» التي تهب لفضيلة الاتضاع كمالها لا يصح أن تلغي الصورة السلبية التي للاتضاع عند الإنسان، بل هي توازنها فقط، فتنقذ يأسها وتنتشل بؤسها وترد على حيرتها وتقوّي رجاءها؛ ولكنها لا تلاشيها، لأن طبيعة الإنسان لا تزال تلازم ضعفها بجوار قوة الله وتلازم ذلها ومسكنتها في حضرة حب المسيح بل وتزيد !!

فالإنسان مهما تبرر فهو لا يزال يأخذ من الله ما ليس له وما لا يستحقه !! «لكي تتعلموا فينا أن لا تفتكروا فوق ما هو مكتوب لكي لا ينتفخ أحد لأجل الواحد على الآخر. لأنه مَنْ يميزك؟ وأي شيء لك ولم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟» (١ كو ٤ : ٦ و٧)

إذاً، في وسط أمجاد نعمة المسيح وقوته التي ترفعنا فوق مذلتنا و يأسنا يلزم أن نذكر دائماً ضعف بشريتنا! لذلك ينبهنا القديس بولس الرسول إلى هذه الحقيقة: «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة» (في ٢: ١٢و١٣). وهذا الاصطلاح: «بخوف ورعدة»، كان يلازم فكر القديس بولس الرسول جنباً إلى جنب مع: «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في ٤: ١٣). وقد ذكر «الخوف والرعدة» أربع مرات في رسائله واستخدمها للتعبير عن شعوره الشخصي أيضاً: «وأنا كنت عندكم في **ضعف، وخوف، ورعدة** كثيرة.» (١ كو٢: ٣)

ولكن لم يكن خوف القديس بولس الرسول ورعدته وإحساسه بضعفه كافياً أن يزحزح إيمانه بقوته في المسيح وحريته في المسيح وشجاعته في المسيح! فهو ليس خوف الذعر أو القلق أو الجبن ولكن خوف مَنْ يرى طبيعته أضعف من أن تقف أمام الله مواقف الخدمة أو التعليم أو الشهادة بمفردها!! هذا الخوف إيجابي في عمله في الداخل أمام الله وفي الخارج أمام الناس، فإنه ينشيء تتميماً للخلاص، كما ينشيء تمسكاً شديداً بالله فيصبح أمام الآخرين شهادة قوية! «أذللت نفسي كي ترتفعوا أنتم» (٢ كو١١: ٧). وشتان ما بين الخوف الإيجابي الذي يلازم الإحساس بالاتضاع الكامل وبين الخوف السلبي الذي يلازم الاتضاع السلبي المريض، لأن الأول ينشيء ثقة في الله والثاني ينشيء فقدان الثقة في الله. الأول ينشيء في الكارز قوة تجذب القلوب إلى الله: «منقادين إلى المتضعين» (رو١٢: ١٦)، والثاني ينشيء في الكارز نفوراً من جهة الإلهيات: «الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة واحدة.» (غل ٢: ٥)

ثانياً: الاتضاع كفضيلة للسلوك (أي بالنسبة للناس):

رأينا أن الاتضاع الواجب علينا بالنسبة لله كفضيلة إيمانية للعبادة، حالة لا

يمكن تطبيقها على العلاقة التي تربطنا بالناس أو الملائكة أو أي خليقة أخرى. فكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض لا يفصلها عنا ذلك البعد الهائل الذي يفصلنا عن الله، كما أنه لا توجد خليقة يمكن أن نعتمد عليها في خلاصنا أو يمكنها أن ترفع عجزنا ويأسنا، لذلك أصبح الله وحده هو الذي نقف أمامه عابدين خاشعين **بالاتضاع الكامل** من حيث الخوف والرعدة الكثيرة ومن حيث الاعتماد الكلي.

ومن هذا يتبين أن فضيلة الاتضاع هي أساساً موهبة للعبادة مملوءة سراً لتكميل الخلاص.

اتضاعنا أمام الناس هو صورة واقعية لحالنا أمام الله:

ولكن، في الحقيقة، إذا كانت حياتنا وسيرتنا في عبادتنا المنسحقة أمام الله هي بالاتضاع الكامل بكل واجبات الاتضاع ومستلزماته، أي بإحساسنا بأننا لا شيء وأن طبيعتنا ضعيفة وأننا خطاة وغير مستحقين لصلاح الله ونعمته، وفي نفس الوقت إذا كان اعتمادنا على الله وتمسكنا بالفداء والخلاص الذي أكمله المسيح عنا إيجابياً وفعالاً في حياتنا؛ فالذي يحدث هو أن سلوكنا مع الناس سيكون منطبعاً بهذا الاتضاع الإلهي الذي يتغلغل أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا ومعاملاتنا كلها، **بحيث أننا سنظهر بالفعل متضعين ومنسحقين مع كل إنسان كأننا أمام الله نفسه دون تمييز بين عظيم وحقير أو قوي وضعيف أو قديس وخاطىء!** فاتضاعنا أمام الله يملأ حياتنا سيرةً وأخلاقاً وسلوكاً.

لذلك نجد أن معظم وصايا الاتضاع المختصة بمعاملاتنا وعلائقنا مع الآخرين وردت متصلة بتواضعنا وخشيتنا وخضوعنا لله. إذ يستحيل أن نقوى على ممارسة الاتضاع الصادق مع الناس دون أن يكون هذا الاتضاع السلوكي مستمداً مباشرة من الاتضاع لله بالعبادة الخاشعة.

«كذلك أيها الأحداث اخضعوا للشيوخ وكونوا جميعاً خاضعين بعضكم لبعض وتسربلوا بالتواضع **لأن الله يقاوم المستكبرين**، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة، فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه، مُلْقِينَ كل همِّكم عليه لأنه هو يعتني بكم.» (١بط ٥: ٥-٧)

وبهذا يقترن التواضع للناس مع التواضع تحت يد الله مع إلقاء كل الهمِّ على الله، أي أن التواضع في السلوك هو الصورة الظاهرية الحتمية للتواضع القلبي الداخلي بالعبادة. والقديس بولس الرسول يقرن تواضعه تجاه الله بتواضعه للناس في عمل الخدمة كتواضع واحد: «أخدم الرب بكل تواضع ودموع كثيرة.» (أع ٢٠: ١٩)

ولكن لعل أقوى وصايا الاتضاع السلوكي التي جاءت مرتبطة باتضاع العبادة لله هي التي قدمها لنا الرب بقوله: «احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب» (مت ١١: ٢٩). هنا يقدم لنا الرب «نيره» أولاً، وحينئذٍ يمكننا أن نتعلم منه اتضاع قلبه. فنيره هو اتضاع العبادة أمام الله القائمة على الإيمان بعار الصليب واتضاعه والطاعة المُحبَّة لله حتى الموت التي قدمها للآب. وهكذا يكشف لنا الرب عن أعظم أسرار اتضاع القلب للسلوك بين الناس.

واتضاعنا الكامل الذي نعبد به الله بكل خوف وخشوع واتكال عليه، يُحضر أمامنا وباستمرار طبيعتنا العاجزة وضعف أخلاقنا وسلوكنا وخطيتنا وحدود إمكانياتنا الهزيلة، واستحالة أن نثق في أنفسنا. لذلك، فبواسطة اتضاع العبادة، يرتفع من إحساسنا ومن فكرنا ومن معاملاتنا أي شعور بالتعالي أو الكبرياء على الآخرين مهما كانوا خطاة، ذلك لأن طبيعتهم هي من طبيعتنا. وحينئذٍ تنصبغ كل سيرتنا مع الآخرين بطبيعة التواضع الإلهي، الذي نعيش به أمام الله! «وأنا لما أتيت إليكم، أيها الإخوة، أتيت ليس بسموِّ الكلام أو الحكمة، منادياً لكم

بشهادة الله ... وأنا كنت عندكم في ضعف وخوف ورعدة كثيرة» (١ كو٢ : ١و٣)، «لا شيء بتحزب أو بعُجْبٍ، بل بتواضع حاسبين بعضكم بعضاً أفضل من أنفسهم.» (في ٢ : ٣)

خطر الاتضاع إذا خلا من الثقة بالله:

وفي نفس الوقت، ولأن الاتضاع كفضيلة إلهية كاملة تحمل إيماناً وإحساساً بالاعتماد الكلي على الله دون أي اعتماد على النفس أو على أي إنسان، فهذا يجعل سلوكنا مع الآخرين سلوكاً غير متهالك على معوناتهم وسواعدهم وأموالهم، أو خائف من بطشهم وظلمهم وعدوانهم. وهذا يؤمِّن اتضاعنا من صِغَر النفس الذي هو أخطر العوامل التي تفسد الاتضاع وتُسقطه من وضعه كعبادة وتمجيد لله !!

فإذا فَقَدَ الاتضاع العنصر الإيجابي منه، أي الاعتماد على الله والتمسك بقوته ومحبته والاتصال الدائم به، فإنه ينحدر في الحال إما إلى استجداء عطف الناس ومعونتهم وتشجيعهم وإحسانهم، وإما إلى الخوف منهم وممالأتهم !! وهذه هي طبيعة الاتضاع السلبي المزيف. «وأما أنا فأقل شيء عندي أن يُحْكَم فيَّ منكم أو من يوم بشر... لكنني لست بذلك مبرَّراً ولكن الذي يحكم فيَّ هو الرب» (١ كو٤ : ٣و٤)، «أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد **بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضي الناس، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس**» (أف٦ : ٥ـ٧). وهنا ينبهنا القديس بولس الرسول: «لا يُخسركم أحد الجعالة راغباً في التواضع... من قِبَلِ ذهنه الجسدي.» (كو٢ : ١٨)

المسيح كنموذج للاتضاع السلوكي:

في تخلِّي ابن الله عن مجده وقبوله أن يكون في هيئة إنسان مذلول وصورة عبد

مهان، مع أنه ابن الله من جوهره والحامل لصورة الله، نجد شرحاً لقوة الاتضاع الكامل الذي لازم الخلاص والفداء كضرورة حتمية.

ثم إن هذا الاتضاع الذي أجراه ابن الله في نفسه والذي أظهره لنا بصورته البشرية المحتقرة المرفوضة: «رفضوني أنا الحبيب مثل ميت مرذول» (مز٣٧: ٢١ حسب الترجمة القبطية)، وانتهى به اتضاعه في طاعة الآب إلى موت الصليب: «وفي تواضعه انتُزع قضاؤه (حقُّه)» (أع٨: ٣٣)، هو جوهر الاتضاع في العهد الجديد الذي ينبهنا الإنجيل لكي نقبل طبيعته ومعناه وعمله وغايته ــ في سر اتحادنا بالمسيح ــ لكي نعيش به أمام الله والناس: «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلى نفسه وأطاع حتى الموت» (في٢: ٥ــ٨). وهو نفسه يقول: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب.» (مت١١: ٢٩)

الاتضاع في المسيحية هو تمثُّل بالمسيح:

لذلك، فالاتضاع في المسيحية سر من أسرار المسيح نفسه الذي مارسه في ذاته وأعطاه للمؤمنين كقوة يستطيعون بها أن يتنازلوا راضين، و يتخلوا طائعين، عن كل حق بشري مادي أو كرامة أو كفاءة أو امتياز، تشبُّهاً بالمسيح وتمسُّكاً بحق الله وكرامته ونعمته، ليكملوا خلاص أنفسهم وخلاص القريب، ويستطيعوا في النهاية، وهم حاملون عار الصليب، أن يشتركوا في مجده. فالاتضاع ليس مجرد أعمال نمارسها مع الآخرين لنربح فضيلة الاتضاع؛ بل الاتضاع هو في الحقيقة سر المسيح الأعظم الذي يفتح أمامنا الدخول بسعة إلى ملكوت الله ومجد المسيح.

نحن بممارستنا لواجبات التواضع، نحاول أن نقتدي بالمسيح الذي تخلى عن مجده وقَبِلَ الهوان وتحمَّل عقوبة خطية غيره، ومات منزوعاً حقَّه حسب العدالة البشرية، ليكمل طاعة الآب لخلاص الإنسان.

فرق شاسع جداً بين أن نمارس الاتضاع تحت مجرد شعورنا الخاص بخطيتنا وبعدم استحقاقنا وذلة طبيعتنا العاثرة فقط دون أي هدف إيجابي، وبين أن نمارس الاتضاع تحت هذا الشعور عينه وإنما متمثلين بالمسيح نفسه بل متمسكين به كقول الإنجيل. لأن الاتضاع بصورته الأُولى يزيد الإنسان بُعداً عن الله وعن أخيه الإنسان فلا يجد الأخ في أخيه ما يشجعه على الأُلفة والمحبة والعمل، إذ يجمد كل واحد في مكانه ويفصله عن الآخر تحت شعور العجز وعدم الاستحقاق. في حين أنه بممارسة الاتضاع ونحن متمثلون بالمسيح، بأن يتنازل كل منا عن كرامته للآخر، مثل المسيح، ويفرغ ذاته من كفاءته ومميزاته، سوف يجد كل واحد في الآخر فرصة بدالة المسيح واتضاعه، لكي يقترب إلى أخيه ويتآلف معه للعمل والبنيان دون تعالٍ، فتسود المحبة ويقود الروح: «فإننا لسنا نكرز بأنفسنا بل بالمسيح يسوع رباً ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع» (٢كو٤ : ٥)، «وكل ما عملتم بقول أو فعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع.» (كو٣ : ١٧)

حينئذٍ، وحينما نتجه ناحية المتكأ الأخير لنجلس عليه، لا يكون في ضميرنا أننا ننظر إلى الواقفين أو الجالسين أو المدعوين من الناس، بل أن ننظر إلى الرب الذي أخذ مكانه وراء كل الصفوف البشرية لكي يجد فيه أحقر إنسان نموذجاً للاتضاع!! فاختيارنا للكرسي الأخير يكون مرتبطاً في أعماق ضميرنا باقتدائنا بالمسيح الذي صار خلف البشرية كلها. ولا يكون شعورنا هو عدم استحقاقنا للمتكأ الأول أو المواقف العظيمة فقط؛ بل محبة المتكأ الأخير وسرورنا به لمناسبته جداً لنا، كمن يقدم كل كرامته وكل امتياز عنده ذبيحة للجماعة كما قدمها المسيح!

«نحن جهال من أجل المسيح أما أنتم فحكماء في المسيح، **نحن ضعفاء** وأما أنتم فأقوياء، أنتم مكرمون **وأما نحن فبلا كرامة ... صرنا كأقذار العالم**

ووسخ كل شيء إلى الآن ... فأطلب إليكم أن تكونوا متمثلين بي.»
(١ كو٤ : ١٠و١٣و١٦)

لهذا غسل الرب أرجل التلاميذ لكي يقدم لنا تذكاراً أبدياً لا تضاعه العجيب، ولذلك أمرنا أن نتبع مثاله: «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً، قال لهم: **أتفهمون ما قد صنعت بكم؟** أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك، فإن كنتُ وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم **يجب عليكم** أن يغسل بعضكم أرجل بعض. **لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً ... إن عَلِمتُم هذا فطوباكم إن عملتموه.»**
(يو١٣ : ١٢–١٧)

هنا يقدم المسيح لنا وصية الاتضاع كأمر مُلزم: «**يجب عليكم**»، لننال بها دخولاً إلى ملكوت ربنا. ولهذا دخلت فضيلة الاتضاع في الناموس المسيحي كجزء قانوني في صميم الديانة، فأصبح الإنسان المسيحي في ممارسته للاتضاع لا يكون كمن يقتني عملاً فاضلاً زائداً عن الناموس المسيحي بل كمن يخضع لله!

ومهما كان تنازل الإنسان المسيحي لأخيه أو للجماعة كبيراً جداً، حتى ولو كان المتنازل ملكاً يجلس في التراب ليغسل أرجل جنوده، فهو لن يتساوى مع المسيح عندما غسل أرجل تلاميذه.

لهذا قدم لنا المسيح سر اتضاعه، حتى بهذا السر الذي يتغلغل طبيعتنا تسهل علينا كافة أعمال الاتضاع. فمجرد تصوُّر المسيح جالساً على الأرض يغسل أرجل تلاميذه، كافٍ لأن يُلهب قلوبنا بالاتضاع فتصير أعظم أعمال الاتضاع وأشقها وأمرُّها سهلة ومحبوبة، إذ أننا لا نعود بعد نعمل الاتضاع لنرضي أنفسنا أو الناس بل تشبهاً بذاك الذي مات عني وحباً له وكرامة!

٢ ـ التجــرُّد (الكفاف)

بحسب الإنجيل

حينما يقول الإنجيل:

+ «بِعْ أملاكك ... وتعالَ اتبعني» (مت ١٩: ٢١)،
+ «ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل، إلا ويأخذ مائة ضعف، الآن في هذا الزمان بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً مع اضطهادات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (مر ١٠: ٢٩و٣٠)،
+ «أريد أن تكونوا بلا همٍّ، غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يُرضي الرب» (١ كو٧: ٣٢)،
+ «يوجد خِصْيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» (مت ١٩: ١٢)،
+ «من أهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل يجدها» (مر ٨: ٢٥)،
+ «من أضاع حياته من أجلي يجدها» (مت ١٠: ٣٩)؛

عندما يقول الإنجيل هذا، يكون بذلك قد حدد صورة للسلوك تجاه الغِنَى والملكية والحياة الجنسية والتمسك بالذات.

ولكن السؤال المباشر على هذا التوجيه هو: لماذا إذاً خلق الله العالم وهذه الأمور؟ وهل هي خطية؟ ... وللإجابة على ذلك يلزم:

أولاً ـ أن نفرق بين العالم كما خلقه الله وبين العالم «الحاضر» أو

«هذا العالم» أو «هذا الدهر». العالم الحاضر هو عالم الفساد والموت، وقطعاً لم يخلقه الله هكذا. إنه بسقوط آدم «دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» (رو ٥ : ١٢). إذاً، فالخطية هي سبب فساد العالم والموت وليست الأشياء أو الأمور أو استخدامها. وقول القديس بولس الرسول: «وبالخطية الموت» يحدد هنا المسئولية الفردية.

ثانياً ــ كذلك يلزم أن نوضح كيف صارت الخطية سبب إفساد العالم والأشياء الزمنية. هذا يوضحه القديس بولس الرسول بقوله: «إن عشتم حسب الجسد فستموتون ... لأن اهتمام الجسد هو موت ... لأن اهتمام الجسد هو عداوةٌ لله إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله لأنه أيضاً لا يستطيع» (رو ٨ : ١٣ و٦ و٧)، «ومن يزرع لجسده فمن الجسد يحصد فساداً» (غل ٦ : ٨). أي أن الفساد والخطية وبالتالي الموت هو نتيجة للسلوك حسب الجسد، وما هو السلوك حسب الجسد؟

المادية بمفهومها الروحي الإنجيلي:

كلمة «حسب الجسد» تشير في كل المواضع التي ذُكِرَت فيها في الإنجيل أنها لا تعني مجرد جسد الإنسان أو الطبيعة البشرية، ولكنها تعني **كل دائرة المنظور والمحسوس المادي، وكل دائرة الحقائق المعقولة حيث يقتنع الإنسان أن يعيش فقط حسب الواقع المنظور وحسب المعقول.** وهذا يؤدي إما أن يكون هدف حياة الإنسان مجرد الاستمتاع والتلذذ الجسدي بها: «لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت» (إش ٢٢ : ١٣، ١ كو ١٥ : ٣٢)، أو الاستمتاع بامتلاكها والحصول على أكبر قدر منها والتسلط عليها، أو إلى أن تكون الحياة والعبادة من أجل مكافأة وتعويض جسدي أو مادي محسوس.

الارتباط الكلي بالعالم المنظور ينشىء سالبية مميتة:

وهكذا تضيع حياة الإنسان وراء السراب المادي لأن المادة بكل ما فيها من

معقول ومحسوس مآله حتماً إلى الزوال. وبسلوك الإنسان «حسب الجسد» بهذا المعنى، يكون الإنسان قد خلق «قوة سلبية» في العالم، هو الذي يخلقها وهو الذي يستعبد نفسه لها؛ وهي «سلبية» لأنها تمتص كفاءته الروحية ومواهبه واستعداداته المغروسة فيه لميراث الحياة الأبدية وتنتهي به إلى الفساد والموت. هذه القوة السلبية لم يخلقها الله ولا هي موجودة على وجه الحقيقة، ولكن انخداع الإنسان وراء سراب القوة والعقل خلق من المادة وجوداً سلبياً استطاع أن يبتلع هذا المخلوق العظيم، الإنسان.

ولكن لماذا ينخدع الإنسان ويحيا حسب الجسد؟

الأمل الخادع:

السر في انحراف الإنسان وراء الجسد هو القلق والهم اللذان يثقلان حياة الإنسان: «لا تهتموا ...» (مت٦ : ٢٥). وكل إنسان يتركز همُّه وقلقه في ناحية معينة من نواحي الحياة، يتجه إليها بكل إمكانياته وبقدر نجاحه فيها، ويعطيها أكثر مما يجب من الثقة والأمل لعله يؤمِّن حياته بواسطتها، حتى إنه أحياناً يعطيها حياته كلها ويربط عليها أمله ورجاءه وبذلك تمتص وجوده الروحي وتلغيه. لذلك نسمع المسيح يوجه تعليمه نحو هذه العلة التي هي مبدأ السقوط والفساد: «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون» (مت٦ : ٢٥). كذلك القديس بولس الرسول أيضاً: «أريد أن تكونوا بلا همٍّ، غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يُرضي الرب وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضي امرأته.» (١ كو٧ : ٣٢و٣٣)

الهم المرض القاتل:

كذلك في مواضع أخرى يبين الرب أن «همَّ هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة» (مت١٣ : ٢٢). أي أن الهمَّ له قدرة سالبة تجرِّد الإنسان من

سلاح الروح (الكلمة). كذلك فهموم الحياة تلهي الإنسان عن آخرته: «احترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمارٍ وسكرٍ وهمومِ الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة.» (لو٢١: ٣٤)

وهكذا يوضح الكتاب المقدس أن الهم والقلق يجرفان الإنسان ليسلك حسب الجسد وهو متوهّم أنه يؤمِّن حياته إما بالمال والملكية، أو بالزوجة والبنين، أو بالبأس والقوة والاعتماد على الذات، أو بالعبادة القائمة على البر الذاتي أو من أجل مكافأة في هذا العالم. ولكن هذه الأشياء كلها لا تؤمِّن حياة الإنسان، لأن حياة الإنسان الجسدية ليست في أمان على وجه الإطلاق.

العالم يستعبد الإنسان بدل أن كان الإنسان سيد العالم:

والنتيجة، أنه بدل أن تكون هذه الأشياء قوة يمتلكها الإنسان لتؤمِّن حياته، تكون له بالعكس قوة سالبية تستعبده وتجرِّده من حريته ووجوده الحقيقيين. و بدل أن يستخدم الإنسان العالم والحياة التي خلقها له الله كسيد عليها وحرٍّ منها ليحقق وجوده وسيادته الروحية عليها واستقلاله الناشىء من حريته، تنعكس كل الأوضاع ويصير العالم له سبب قلق وعبودية وفساد وموت، حيث يكون السلوك «حسب الجسد» هو أصل الخطية ومنشأها.

التمسك والتشبث بالزائل ينتهي بالزوال:

ولأن الجسد والأشياء المادية التي بنى عليها الإنسان حياته وأمله ومستقبله هي زائلة، تصير حياة الإنسان الذي يتبعها زائلة بالضرورة، وانصبابه وراءها يوقعه في عبودية فسادها ويعمي عينيه عن الحقيقة الإلهية ومعنى الحرية الحقة.

التمسك بالله يرفع الإنسان فوق العالم:

على هذا الأساس ينبري الإنجيل في تدعيم حياة أخرى حرة أصيلة هي حياة

«حسب الروح» أو «حياة الإيمان». هذه الحياة عمادها هو الرجاء بغير المنظور، والحق الإلهي الذي لا يعتمد على العالم ولا الأشياء التي في العالم، حياة لا يدبر فيها الإنسان لذاته ولا يؤمِّنها بشيء من العالم ولا بالعالم كله، حياة يَفُكُّ الله فيها بنعمته الإنسان من ماضيه ويربطه بالحياة الأبدية عندما يُفكُّ هو نفسه من العالم والأشياء التي فيها فيسود عليها معطياً ظهره لكل عَرَضٍ من عروض تأمين الحياة الجسدية، مرتفعاً فوق كل هم أو قلق من أجل الحياة في الجسد: «**ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتني بكم**» (١بط ٥: ٧)، رافضاً كل ثقة في أعمال الذات واضعاً كل الثقة في الله. وهكذا يتحرر الإنسان من العالم وكل ما في العالم ومن ذاته وكل عمل يأتي من ذاته. هذا هو أساس فكرة التجرد في الكتاب المقدس.

أساس التجرد في الكتاب المقدس هو: «لأن هيئة هذا العالم تزول. فأريد أن تكونوا بلا همٍّ» (١كو٧: ٣١و٣٢). الكتاب أكَّد على التجرد بسبب أن الإنسان انخدع وراء تأمين حياته بأمور هذا العالم. لقد زيَّف له الهمُّ والقلق إمكانية تدبير مستقبله بنفسه وعمل شيء يعتمد عليه، فضاعت منه حياة الإيمان وتعثَّر في صلته بالله وسلوكه حسب الروح حتى انقفل هذا السبيل في وجهه بسبب تعلقه الشديد بالجسد (ومحاولة تأمين حياته بكل جهده)، وارتباطه بالعالم اليوم كله، الأمر الذي سبَّب له النزاع مع جاره والقلق والخصومة والحرب والطمع وكل مكيدة.

التجرد في الكتاب المقدس، إذاً، هو محاولة لإعادة الانسجام بين الإنسان والخليقة، بحيث يظل الإنسان سيد العالم وكل ما في العالم حسب التدبير الأول. كذلك هو عمل هام لإعادة السلام الحقيقي في قلب الإنسان تجاه الله والقريب وعودة المحبة مع كل الخليقة وفتح الطريق الروحي صاعداً بدون عائق لتحقيق حريته وتأمين وجوده الروحي.

٣ ــ الفقــر (المسكنة)
بحسب الإنجيل

«إنه من أجلكم افتقر وهو غني لكي
تستغنوا أنتم بفقره.» (٢ كو٨: ٩)

البشارة للفقراء علامة من علامات مجيء الملكوت:

«روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأُنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبَصَر، وأُرسل المنسحقين في الحرية.» (لو٤: ١٨)

«فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما، أن العُمْي يبصرون والعُرج يمشون والبُرص يطهَّرون والصم يسمعون والموتى يقومون **والمساكين يبشَّرون.**» (لو٧: ٢٢)

الفقر كالطفولة أقرب القامات إلى الملكوت،
إن كان يسنده الروح:

«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات.» (مت٥: ٣)

«ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال: طوباكم أيها المساكين بالروح لأن لكم ملكوت الله.» (لو٦: ٢٠)

الرب اختار تلاميذه فقراء ليتفرغوا لعبادة الواحد، وليُغنوا العالم بالإيمان:

«اسمعوا يا إخوتي الأحباء أما اختار الله فقراء هذا العالم (ليكونوا) أغنياء في الإيمان وورثة الملكوت الذي وعد به الذين يحبونه؟ وأما أنتم فأهنتم الفقير.» (يع ٢: ٥و٦)

« كفقراء ونحن نُغني كثيرين.» (٢ كو٦: ١٠)

«إلى هذه الساعة نجوع ونعطش ونَعْرَى ونُلْكَم وليس لنا إقامة.» (١ كو٤: ١١)

«اختار الله أدنياء العالم والمزدَرَى وغير الموجود.» (١ كو١: ٢٨)

المال ليس شراً ولكن محبته أصل للشرور:

«ليفتخر الأخ المتضع بارتفاعه وأما الغني فباتضاعه لأنه كزهر العشب يزول. لأن الشمس أشرقت بالحر فيبَّست العشب فسقط زهره وفني جمال منظره. هكذا يذبل الغني أيضا في طرقه.» (يع ١: ٩ــ١١)

«أما المتنعمة فقد ماتت وهي حية.» (١تي٥: ٦)

«لتكن سيرتكم خالية من محبة المال، كونوا مكتفين بما عندكم لأنه قال لا أهملك ولا أتركك.» (عب١٣: ٥)

«وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تُغرق الناس في العطب والهلاك. لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة. وأما أنت يا إنسان الله فاهرب من هذا واتبع البر والتقوى والإيمان والمحبة والصبر والوداعة.» (١تي٦: ٩ــ١١)

معنى الفقر في الكتاب المقدس

أولاً ــ الفقر الاختياري :

أيديولوجية الفقر في المسيحية حسب فكر المسيح :

المسيح بتطويبه المساكين والجياع والعطاش والمطرودين والباكين لم يقصد أبداً أن يقلب طبيعة القيم ، فهو لم يقل أن الفقر والجوع والعطش والاضطهاد والبكاء أمور صالحة في حد ذاتها ، فهو الذي تحنن على الجموع الجائعة وتكفل بإطعامهم ، وهو الذي لم يحتمل بكاء أرملة نايين فأقام ميتها . ولكن المسيح بتطويبه هذا فتح مجالاً لرجاء أعظم أمام الإنسان الذي حُرم من ضروريات الحياة الأرضية بسبب ظلم الإنسان وجور الحكومات وانعدام الإنصاف وقصور العدالة البشرية وأخطاء الطبيعة .

المسيح يعرض خيرات السماء تعويضاً بحتاً للمحرومين من خيرات الأرض، جاعلاً العدالة السمائية تتكفَّل بسدِّ نقص أحكام الإنسان الجائرة وتعويض المظلومين من كل إجحاف : «اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب» (لو١٦ : ٢٥). فالذين لفظتهم البشرية خارج السياجات وعاشوا مُذَلِّين، استدعاهم وقرَّبهم إليه وأجلسهم في وليمته السمائية وأشبعهم من خيراته .

والمسيح بكشفه هذه الحقيقة الروحية، صنع تحولاً جذرياً في حياة الإنسان على الأرض إذ بهذا الرجاء الأعظم ألغى من إحساسهم كل شعور بالنقص مهما بلغ من العَوَز حتى العدم، وهذا كفيل أن يجعله قادراً على أن يكافح برجاء ورضى، فيتسنى له أن ينتج حتى في ضعفه وفقره. فالإيمان

بالملكوت وحياة الدهر الآتي وبحب المسيح كفيل أن يمد الإنسان بطاقة عظيمة من الرجاء والتفاؤل والشكر، بجعْله أكثر نشاطاً وبأساً من الغنى. فالمسيح لم يؤمِّن الظلم، ولكنه عالج ضحايا الظلم؛ وهو لم يهدىء قلب الفقير بالأماني والوعود ليسكت ويموت، ولكنه رفع معنوياته ليجاهد في فقره كغالب ومنتصر؛ بل وكأعظم من منتصر: «كفقراء ونحن نُغْني كثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء.» (٢ كو٦: ١٠)

ثانياً ــ الفقر الاختياري:

ــ «ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً مع اضطهادات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية.» (مر ١٠: ٢٩و٣٠)

ليلاحظ القارىء أن الفقر الإنجيلي يتجه رأساً نحو قدرة الإنسان الروحي في إمكانية التخلي عن ألزم لوازم الإنسان حتى علائق الأسرة، كاشفاً عن عظم وزن الإيمان بالله وتفوُّق الحب على أعواز الجسد، ووضوح الهدف الإلهي الذي يعيش له الإنسان. أما الترف الذي يعيشه أولاد هذا الدهر، وأما الغِنَى والبذخ في اقتناء الأثاث الفاخر والتحف ووسائل التسلية والملابس النادرة والمفروشات الثمينة ... إلخ، التي كلها ليست من أعواز الإنسان ولا هي ضرورة من ضرورات الحياة، بل هي في حقيقتها إتلاف وطموح تجاه الأرستقراطية، فينحرف بمستوى المعيشة كلها ثم يطغى شيئاً فشيئاً على الروح إلى أن يزحزح من أمامها هدفها المقدس الذي كانت تحيا من أجله. فكل ذلك يرى الإنجيل أن التخلي عنه هو أساس، يبتدىء من بعده في التكلم عن الفقر الإنجيلي حيث إمكانية التخلي بالحري عما هو لازم وضروري.

الإنـجـيـل يـرى أن الـصـورة التي ينبغي أن يعيش عليها أبناء الله الساعون إلى ملـكـوته لا يتحتم فقط أن تخلو من كل ما هو ترف وتعظم في المعيشة وإتلاف، بل ويـنـبـغـي بـالضرورة أن يتخللها لون من ألوان البذل أو الحرمان الاختياري لتذوق الـعـوز والـفـقـر الجسـدي بمحض الإرادة ومسرتها، فيكون ذلك بيِّنة صادقة على أن الإنسان يطلب حقاً ما هو فوق، وكعربون مدموغ يرفع وجه الإنسان في الصلاة أمام الله حـيـنما يسأل الميراث الذي لا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ في السموات للذين أحبوا الله حقاً وأحبوه من كل القلب.

إيجابية المسيحية في الفقر الاختياري كعمل عبادة للرب:

أساس الـفـقـر الاختياري في الكتاب المقدس لا يبتدىء كإرادة انفصال عن مسرات وممتلكات هذا الدهر، وإنما يبتدىء كعمل اتصال بالرب وتعبُّد له وخدمة كلمته: **«لأجلي ولأجل الإنـجـيـل»؛ أي أن الفقر الإنجيلي مرتبط بهدف إلهي؛** بـل هـو وصـول إلى حالة غِنَى روحي يؤهل الإنسان للسخاء في العطاء حتى بالضروريات.

ولـكـن الـتـجـرد أو الـفقر الاختياري بدون عامل الغنى الروحي وتجديد الحياة لـيـس فـيه ما يُبهر، فقد يكون هَويَّة شخصية أو تهرباً من المسئولية أو نظرة متشائمة لـمـعـنى الجـهاد: «فخفتُ ومضيتُ وأخفيتُ وزنتك في الأرض» (مت٢٥: ٢٥). هـنـا حالة فقر وتخلٍّ خاطىء ــ أو قد يكون الفقر كتعليم أو كتعلُّم ديني خاطىء، أو حالة نفسية مريضة برؤية خاطئة عن شر المادة والعالم والناس.

أما تعليم الإنجيل عن الفقر الاختياري فلا يُشتمُّ منه **أية رائحة لمعنى التهرب من المسئولية أو التشاؤم أو الركون إلى البطالة أو الكسل.** بل على النقيض، فـالكتاب المقدس ينبه الذهن دائماً أنه بقدر ما يكف الإنسان عن الاهتمام بذاته، يـزداد اهـتـمـامه بغيره؛ و بقدر ما يرفض التحلي بالذهب واللآلىء والعطور والخواتم

وتصفيف الشعر، بقدر ما يتولى الروح القدس تزيين النفس في الداخل بالوداعة والتواضع وطيبة القلب وحلاوة الروح واللسان. كذلك ينبه الإنجيل ذهننا أن الجمال الجسدي يمتُّ إلى التراب، والله يُجْزله للحيوان؛ أما الإنسان فجماله الفائق كائن في نفسه وروحه اللتين على صورة الله في القداسة والحق. وبقدر ما يتخلى الإنسان عن جمال الجسد، بقدر ما تتحلى الروح ببهاء الله.

الإنجيل يدفعنا للتقشف في كافة الأمور، لا خوفاً من أن نتوه فقط في الاهتمامات الباطلة، بل لكي تتفتح روحنا لاهتمامات الروح التي ترفع من قيمة الإنسان وتُزيد من كفاءاته وملكاته وتجعله قادراً أن يتبوأ مركزه كأمين على ودائع الله وسلطانه بدل أن كان عبداً لتراب الأرض ولشهواته.

الفقر الإنجيلي يرفع أفق النشاط النفسي إلى الصلات الفائقة للطبيعة:

والكتاب المقدس يرفع من معنويات الإنسان الفقير وتقديره لمعنى الحياة والمسئولية ويدفعه ويشجعه حتى يستطيع أن ينتقل من مسئولية "ذاتية" أقل إلى مسئولية "عامة" أعلى، ومن تقدير "شخصي" مهم إلى تقدير "جماعي" أهم. فالكتاب يخاطب الفقير الأمين: «كنت أميناً في القليل، هلمّ فأقيمك "أميناً" على الكثير» (مت ٢٥: ٢١). كذلك يرفع أفق تفكيره ونشاطه **ليعبُر من الصلة الطبيعية المحدودة** بالناس والعالم على أساس المنفعة والراحة الذاتية، **إلى الصلة الفائقة للطبيعة غير المحدودة** على أساس خدمة الإنجيل والراحة العليا: «ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً **لأجلي ولأجل الإنجيل** إلا ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً، مع **اضطهادات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية.**» (مر ١٠: ٢٩و٣٠)

وكون الإنجيل يحدد التعويض أنه يكون من نوع المتروك نفسه أيضاً: «بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً»، فهو ينفي نفياً باتاً أي اتجاه تعليمي عن شرّ الناس أو الأقرباء أو الممتلكات في حد ذاتها، ولكنه يلمِّح تلميحاً أن الكفّ عن الحياة حسب الجسد بقصد تكوين العلاقة بالله يصحح مفهوم الملكيات والعلاقات بالناس، ويرفعها إلى مستوى مائة ضعف ولكن ليس من جهة الجسد بعد؛ بل لاستخدام الروح لمجد الله حيث تنقلب قيمة العالم والأشياء والأقرباء من وزنها المادي الشهواني إلى وزنها الروحي الخالص.

الفقر الإنجيلي قربان وذبيحة لله:

الكتاب المقدس يعطي الفقر الاختياري وزناً عالياً ويصبه في قالب قربان وهدية وذبيحة حب لله: «لأجلي ولأجل الإنجيل». فالمسيح يطلب التجرد ويوصي به لا كعمل مجرَّد محدود في ذاته كتضحية بدون غاية؛ أو كعمل نسكي مكرم في عيني الله وحسب؛ ولكن الأمر أعظم من ذلك بكثير بل وأخطر من أن يكون وصايا أدبية، فالتجرد بالفقر الاختياري في نظر الإنجيل مرتبط بخدمة المسيح وخدمة الإنجيل، كإجراء يكشف عن عمق صلات الحب بالله، وذبيحة تعلن عن قوة الإيمان في القلب، وتغليب الروح على الجسد، وإجراء يشهد بحقيقة الإنجيل وصدق وعود الله داخل النفس!

فالذي يبيع أملاكه حباً في المسيح حاملاً صليبه يشهد أعظم شهادة أنه قد تبع المسيح حقاً وأطاع وصاياه وتعاليمه. وشهادة مثل هذه هي شهادة عملية لا تحتاج إلى كلام، كنور يسبق ويضيء أمام وجه الإنسان. وفي نفس الوقت، فإنه بواسطة التجرد يتخلص الإنسان من كل عائق يعوقه في انطلاقه للحياة حسب الروح والمسير بحرارة وحرية نحو الملكوت، وهذا هو سر وعد المسيح أن الإنسان الذي يتجرد من كل شيء من أجله ومن أجل الانجيل ينال الحياة الأبدية!

الحياة الأبدية مكافأة لحب الله في العطاء:

المسيح يعتبر أن الأشياء التي يتخلى عنها الإنسان **حباً فيه وطاعة لإنجيله تصير مقبولة من يده مثل قربان وذبيحة.** فالإنسان عندما يتخلى عن العالم أو عن أهله وأمواله وآماله وشهواته وذاته، تصير هذه كلها مثل ذبائح مقدَّمة لله، يقبلها الله بالرضى ويعطي الإنسان عوضاً عنها ما هو أعظم منها بلا قياس. بهذا يعطي الإنجيل للفقر الاختياري قيمة عالية لا تُقاس بمقدار ما نتخلى عنه، فالوعد بالحياة الأبدية لا يتناسب إطلاقاً مع حقول أو بيوت أو أملاك أو أموال نعطيها للفقراء مهما كانت كثيرة، ولكن هذه القيمة العالية، أي الحياة الأبدية، مرتبطة بالسبب الذي من أجله نتجرأ ونبيع كل شيء. هذا السبب ينبغي أن يكون المسيح نفسه: «**لكن ما كان لي ربحاً فهذا قد حسبتُه من أجل المسيح خسارة**، بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرتُ كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح.» (في٣: ٧و٨)

فالحياة الأبدية مكافأة حب، وليست مكافأة بيع حقل أو تنازل عن بيت أو عاطفة أبوَّة أو أمومة أو أُخوَّة أو بنوَّة. فالفقر الاختياري يوزن بمقدار الحب الدافع إليه، لا بمقدار المال والثروة والعاطفة المتروكة.

كذلك من الخطر أن نأخذ تعليم المسيح في الحضّ على الفقر الاختياري كقوله: «اذهب وبِعْ أملاكك واعطِ الفقراء فيكون لك كنزٌ في السماء وتعال اتبعني» (مت١٩: ٢١)، كأنه يضع أمثلة عليا لا توافق إلا ذوي القدرات والإرادات العالية. هذا يحطم القيمة الروحية في تعاليم المسيح ويُنهي على كل أصالة فيها أو جدية، كما أنه يحل قوتها ويبدد سلطان الإنجيل.

دعوة الفقر الاختياري أمر عام للجميع :

صحيح أن **الأعمال** تختلف حسب الدعوات التي يدعوها الله وكذلك **المسئوليات** تتمايز حسب تمايز المواهب الممنوحة. ولكن وصايا الروح للسلوك بالفقر الاختياري والعفة والقداسة والاتضاع والمسكنة والقناعة، الكل مُطالَبٌ بها، وهي عامة وفي متناول الجميع. لذلك لا يمكن أن يُعفَى منها أحد، فبدون القداسة لن يرى أحد الله: «اتبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب١٢: ١٤)، وبدون الفقر الاختياري يتعذر جداً دخول ملكوت السموات. إن شروط دخول ملكوت الله لا يمكن المساومة فيها. فما يقوله الإنجيل في متى: «**إن أردت أن تكون كاملاً** فاذهب وبع أملاكك» (مت١٩: ٢١)، يقوله في مرقس: «**يعوزك شيء واحد** اذهب بع كل ما لك» (مر١٠: ٢١)، وفي لوقا: «فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو١٤: ٣٣). فما يبدو كأنه «كمال» في إنجيل متى هو عَوَز وضرورة في إنجيل مرقس، والدليل على ذلك أن الشاب الغني لما رفض أن يكون كاملاً حُرم من الملكوت نهائياً ومضى حزيناً، ولم تسعفه الوصايا التي حفظها جيداً وأجهد بها صباه!

الكمال المسيحي ضرورة حتمية وليس اختياراً:

الكمال الذي يقصده المسيح ويدعو إليه هو الكمال الروحي المؤهِّل للملكوت، وهو نموذج واحد وباب واحد، وتسميته كمالاً هو نسبة ـــ أو مقابل ـــ إلى النقص الذي يختاره الذين يعيشون حسب حاجة الجسد وغرائزه. لهذا، **فالكمال الروحي ضرورة مطلقة وليس اختياراً**. ولكن المسيح يوضِّح ضرورة الكمال بقوله: «**كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل**» (مت٥: ٤٨)، وذلك بصيغة الأمر، حينما كان يتكلم عن موضوع الصفح ومغفرة الإساءة ومحبة

الأعداء؛ وقد أوضح ضرورة ذلك بقوله: «**لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات**» (مت ٥: ٥). فالذي يرفض أن يكون كاملاً يرفض في نفس الوقت أن يكون ابناً لله.

والإنجيل يعلق على القضية تعليقاً يقطع كل تأويل خاطىء بأن المسيح يقصد مجرد نماذج للكمال الأخلاقي، إذ يقول في مقابل ذلك: «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (مت ١٩: ٢٤). وهنا يظهر بوضوح أن «بِعْ أملاكك» ليست مسألة اختيارية ولا هي درجة عليا أو وصية للكاملين فقط يمكن أن يوجد من دونها درجات أخرى، بل هي وصية روحية ذات كمال روحي فائق يتناسب مع المسيحية ومع الفداء والملكوت، إذا أخفق أن يطيعها الإنسان صار مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من خلاصه!! وهذا ليس معناه أن يقوم كل إنسان ويبيع كل أمواله في الحال بل يكون كل إنسان مستعداً في كل لحظة أن يفقد أو يبيع اضطراراً أمواله ويتخلى عن كل ممتلكاته أو يفقدها ويكون راضياً شاكراً الله!! وإلا فلا خلاص له.

هذا القول مؤلم حقاً للفكر البشري، والتلاميذ أنفسهم «بُهتوا للغاية» لما سمعوا هذا القرار، بل وحاولوا أن يستنكروا الوصية بشيء من التشاؤم فألقوا سؤالهم الجَزِعْ: «إذاً من يستطيع أن يخلص!» (مت ١٩: ٢٥)

الفقر الإنجيلي وصية وثيقة الصلة بالإيمان بالله:

ولكن المسيح لم يتنازل أمام هلعهم ولم يخفِّف الشروط أو يهوِّن عليهم الحقيقة بشرح آخر ملتوٍ أو بتبسيط يُضيِّع صلابة الوصية ـــ كما يفعل بعض الوعاظ ـــ بل إنه «نظر إليهم» كمن يلومهم على سؤالهم ثم استطرد: «هذا عند الناس غير مُستطاع ولكن عند الله كل شيء مُستطاع» (مت ١٩: ٢٦). وهنا توضيح لسر

الفقر الإنجيلي كيف أنه متصل اتصالاً وثيقاً بالإيمان بالله، فالإنسان من ذاته طماع جشع ولكن عندما يشتعل فيه الإيمان والحب الإلهي يسهل عليه أن يتخلى عن كل أطماعه وجشعه بالسهولة التي بها ينفض الإنسان من يديه التراب.

ولكي يوضح المسيح هذا المعنى الرائع، يُزيد في موضع آخر **أن الخلاص بالنسبة للمتكلين على أموالهم مستحيل لأنه يتنافى نهائياً مع الإيمان!!** ولكن في اللحظة التي يتحرك فيها قلب أي إنسان بحب الله مهما كان غنياً، فالله وحده يعطيه الاستعداد بكل سرور أن يبيع كل غناه. وزكا مَثَل حي لإنسان غني أحب الله وأراد أن يخلُص، فخلَّصه الله، فتنازل علناً ومن تلقاء نفسه عن أمواله (لو١٩:٨).

خطر المال على مسار الخلاص:

إن اقتناء المال خطر في حد ذاته لأنه قوة لا يُستهان بها ويمكن الاعتماد عليها فعلاً من دون الله! كثيرون ادَّعوا قدرتهم على الاحتفاظ بالمال والاحتفاظ بالإيمان، فنجحوا في مبتدأ الطريق، ولكنهم انتهوا بعيداً بعيداً جداً عن الله. إن حدَّ الخطر في اقتناء الأموال أو العقارات أو العلاقات بالناس والاهتمام الزائد بالصحة، يظهر بوضوح جداً عندما يُفاجأ الإنسان بفقد كل ثروته و بعد أن يكون قد أفنى عمره وذكاءه في جمعها، أو عندما يُنكب في عزيز لديه يكون قد جعله أمله في الحياة، أو حينما يصاب بمرض شديد يُقعده عن العمل والمسير بعد أن يكون قد اهتم بصحته وقوته وجعلها غاية اهتمامه وصرف عليها ماله وزمانه. عندئذ يفقد الإنسان صوابه ويتزلزل إيمانه ويضمحل كل رجائه. **ومن هنا يظهر أن اقتناء المال الزائد جداً عن الحد، وارتباط العواطف الشديدة بالأعزاء والأحباء، والاهتمام الزائد المجنون بالصحة والجسد، كل هذا كفيل بأن يطغى على إيمان الإنسان ورجائه في الله دون أن يدري، حيث لا ينتبه إلا عند الخسارة.**

وهكذا يَصْدُق الإنجيل في دعوته للاستعداد القلبي للتجرد والفقر الاختياري، ترفُّقاً بالإنسان واهتماماً بدعوته العليا للحياة الأبدية. وطوبى لمن يتعقل في هذه الحياة ويستجيب لتحذير المسيح قبل أن يتورط في الخسارة.

ونستطيع أن نلمح سطوة محبة المال التي تعلق بها الشاب الغني فأُسقط في اليأس المطلق، وذلك حينما واجهه المسيح بوصيته التي وضعها أمامه كمحكّ لمقدار تقديره للملكوت الله الذي أراد أن يرثه، وكامتحان لاستحقاقه دخول ملكوت الله: «**بِعْ كل ما لك.**» (مر١٠: ٢١)

هنا تظهر سطوة محبة المال والغنى والترف والمقتنيات، كيف استطاعت أن تجعل الشاب الغني يتخلى عن الملكوت وتردَّه عن نداء الضمير والحق وتتسبب في أن يترك المسيح ويمضي. وهنا يبدو كلام الرسول كنور مسلَّط على هذا الفخ المستور الذي عرقل كثيرين جداً وردَّهم عن الخلاص: «لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة.» (١تي٦: ١٠)

والسؤال الذي يتبادر إلى فكر الإنسان هو: **هل مجرد اقتناء الأموال خطية؟**
وما هو حكم إنسان عنده أموال ويريد أن يَخلُص؟
والإجابة على هذا السؤال وما يتبعه، ولو أنه خارج نوعاً ما عن موضوع الفقر الاختياري الذي يلتزم به هذا الكتاب، إلا أننا سنوفي حقه قليلاً حتى يُلمَّ القارىء بالاتجاه الإنجيلي العام.

حرية التحرك والتصرف في حدود خير الآخرين:

الكتاب المقدس يمتدح الإنسان الذي يصنع وليمة للفقراء والجُدع والعُرج والمعدمين الذين ليس لهم ما يكافئون به صاحب الوليمة. وواضح هنا أن صاحب

الوليمة هو بالضرورة صاحب أموال. كذلك، فإن الكتاب يزكي التجارة والربح في مَثَل الوزنات، حيث لا يمانع أيضاً في استثمار الأموال في المصارف، و يؤمّن على الملكيات المطلقة كما في مَثَل الكرام.

وفي الواقع، فإن الكتاب المقدس يمنح الإنسان بصورة عامة حق امتلاك الأشياء والخيرات ضمن حكم السلطان الذي وهبه له على الخليقة ليُخضعها ويستثمرها: «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (تك ١ : ٢٦ــ٢٨). **ثم إن حرية الإرادة الموهوبة للإنسان، ميدانها العملي الذي تمارَس فيه وتُختبر صحتها هو استخدام هذه الخيرات.**

ولأن الإنسان ينتمي لأسرة البشرية وتربطه بها اعتبارات وجدانية وأخلاقية، أصبح الإنسان مرتبطاً بأن تكون ملكيته وتصرفه إزاءها ذات صلة حتمية بالآخرين، حيث تظهر حرية إرادته في كيفية مباشرة ملكيته واستثمارها بالنسبة لخير الآخرين وصالحهم العام. **لأن طبيعة خيرات الله الموهوبة للإنسان ذات صفات وآثار عامة لا يمكن حبسها في حدود منفعة مقفلة، بحيث إذا حاول الإنسان احتكار خيرات الله لنفسه فقط من أرض أو ثمار أو حيوان أو عقار أو أموال أيًّا كان نوعها، فإنه يكون قد تعدى على طبيعتها الخيرة ويكون الإنسان بذلك قد جرَّدها من عنصرها الإلهي كهبة.**

من ذلك نرى أن امتلاك خيرات الله تستلزم شروطاً معينة لتظل هذه الخيرات

معتبرة أنها خيرات الله، ويظل الإنسان محسوباً أنه مستثمر لها حسب قصد الله.

هذه الشروط في الواقع هي التي تؤهل الإنسان لحق امتلاكها، كأن يكون الإنسان ذا كفاءة وقدرة وحرية إرادة صالحة لاستثمار الممتلكات استثماراً ناجحاً، وعلى أساس من الصالح العام، لتظل خيراً عاماً حسب قصد الله: «**أوصِ الأغنياء في الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى، بل على الله الحي، الذي يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع، وأن يصنعوا صلاحاً، وأن يكونوا أغنياء في أعمال صالحة، وأن يكونوا أسخياء في العطاء كرماء في التوزيع، مدخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل لكي يمسكوا بالحياة الأبدية.**» (١تي٦: ١٧—١٩)

وهنا يتحدد مفهوم «الملكية» حسب روح الكتاب المقدس أنها ليست مجرد امتلاك للراحة والمتعة الشخصية وحبس خيرات كثيرة لتأمين حياة فردية؛ ولكن الملكية في حكم الكتاب المقدس هي في الواقع **إدارة وكفاءة للاستثمار الناجح لضمان إكثار الخير للصالح العام**، حيث يضيع هنا معنى الملكية الفردي الضيق ومفهومها الذي اصطلح عليه الناس، ويتضح ذلك من مثل الوزنات ومن مثل الإنسان المسافر الذي أقام وكيلاً أمر أن يعطي عبيده طعامهم في حينه فثبتت كفاءته فأقامه على جميع أمواله.

وهنا يظهر اتجاه الإنجيل أن الكفاءة والأمانة والخدمة الصحيحة يعتبرها أساساً لإدارة الأعمال والملكية، حيث يعتبر الإنجيل هذا النموذج المادي صالحاً أن يكون تطبيقاً على الأمانات والخدمات الروحية وواسطة للانتقال إليها: «كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير» (مت٢٥: ٢١)، حيث القليل تعبير عن الماديات، والكثير تعبير عن الروحيات.

الخطر ليس في التملك ولكن في التصرف:

والمحور الذي تدور عليه كل هذه الأمثلة هو أن الإنجيل يعتبر أن الخيرات سواء كانت مادية أو روحانية خلقها الله لتكون ذات نفع أكبر لأكثر عدد من الناس. وعلى أساس هذا الاتجاه يتحدد مفهوم الملكية في الكتاب حتى في المواهب الروحية، كنوع من الوكالة أو الأمانة. فالكتاب لا يهمه مَنْ الذي يملك ــ فهو يود أن الجميع يملكون ــ وإنما يهمه كيف يملك. فالغني الذي صنع وليمة للفقراء المعدمين أعطاه أجراً في السماء لا يفنى، والغني الذي تجاهل لعازر المسكين وضنَّ عليه بفتات مائدته طرحه في العذاب.

والكتاب يترك الإنسان حراً يملك أو لا يملك، ولكن في اللحظة التي يملك فيها يبتدىء حسابه. فإذا أخل بشروط الملكية حسب مشيئة الله وطبيعة خيراته كأن يجنح مثلاً نحو إهمال ملكيته وإتلافها، فإنه يُعتبر مفسداً لخيرات الله، كصاحب الوزنة التي طمرها بإهماله وكسله وسوء تصرفه، فكان عقابه أنه حُرم من خيرات الله جملة. أو أن يميل صاحب الملكية ناحية المتعة والاستئثار الشخصي وحبس الخيرات الكثيرة لتأمين الحياة الجسدية بما يفوق حاجته، فإنه يُعتبر جشعاً طماعاً سالكاً حسب شهوة الجسد مثل الغني الذي لقبه الكتاب بـ «الغني الغبي» (لو١٢: ٢٠)، الذي هدم مخازنه الصغيرة وابتنى لنفسه مخازن أكبر ليؤمِّن راحته وسلامة جسده لسنين كثيرة.

وهكذا نجد أن الكتاب المقدس يضع الملكية أولاً وقبل كل شيء لصلاح روح الإنسان، ثم بعد ذلك كمحكّ للكفاءة الشخصية والأخلاق وكاختبار لحرية إرادة الإنسان واعتباره للصالح العام، **فالمال بمجرد أن يودَع في يد الإنسان يصير امتحاناً لروحه أشد امتحان؛ فإما يتحول إلى متعة وغنى وجشع واستئثار وبالتالي يصبح هلاكاً للنفس، وإما يصير للبذل والصلاح وللجهاد والكدح**

والرحمة والإغداق والمشاركة والمحبة، وبالتالي يصير علة خلاص أبدي. وفي هذه الحالة الأخيرة لا يعتبر غِنىً ولا امتلاكاً إنما وكالة وأمانة. وواضح أن الكتاب المقدس لا ينعت الإنسان الروحي الصالح الكفء في إدارة الأموال بكلمة «غَنِيّ». فالغني صفة يقصد بها الكتاب دائماً الجشعين «المتَّكلين على أموالهم»، أي الصنف الآخر الذي يمتلك لنفسه.

كيف أن الفقر الاختياري بالروح
قد يقف على مستوى التملك بالتصرف الروحي السليم:

على هذا الأساس وفي حدود هذا المعنى ينظر الإنجيل «للغِنَى» والملكية الفردية على وجه العموم باعتبار أنهما قد يتحولان إلى استغلال شخصي للمال واختزان الخيرات وحجزها عن المنفعة العامة. لذلك فالكتاب المقدس يرفض رفضاً قاطعاً الغِنَى والملكية إذا كانا على هذا الأساس، باعتبار أنهما سيكونان ذاتا طبيعة سلبية كالخطية، تفيد التعطيل وتنمي الحرمان وتحبس الخير وتجمده، وغنى أو ملكية بهذا الوضع يكون هادماً للروح وللمواهب والأخلاق وحرية الإرادة الصالحة.

وعلى ذلك فإن كان الكتاب المقدس يوصي بالتجرد والفقر: «بع كل ما لك واعط الفقراء»، فهو إنما يتطلع إلى حرية الإنسان وراحته، جاعلاً من الحرمان الظاهري والعوز الجسدي شبه حياة ملكوتية، وذبيحة حب، وشهادة إيمان، ونية خدمة روحانية، وتلمذة صادقة للكمال المسيحي والخلود.

كذلك، فالإنجيل من الوجهة الأخرى يوصي بحمل الأمانة المثالية بالتصرف الصالح المشترك لصالح الخدمة والبذل والعطاء والاهتمام الرحيم الساهر بالإنسانية وبإخوة المسيح الأصاغر من مسجونين وجياع وعطاش وعرايا وغرباء وقديسين.

والوصيتان هما على مستوى يكاد يكون واحداً من الصعوبة. ولكن الإنجيل يقدم التجرد والفقر ويميزه لأنه بلا جدال هو الحالة الأقرب لحياة الملكوت التي تبذل فيها الذات بلا قيد ولا شرط، حيث يعيش الإنسان كزنبقة الحقل أو كعصفور أو كملائكة الله! و بذلك يعتبر الفقر الاختياري، بالبيع المباشر الجريء، عملية تطهير عظمى تؤهّل لحياة حسب الروح بلا أقل شك، وتعد الإنسان في وقت قليل جداً للانتقال المباشر من القليل المادي إلى الكثير الروحي، كما أنها تعبّر تعبيراً رائعاً مختصراً عن أمانة الإنسان لله فيما وضعه بين يديه من خيرات الدنيا وكرامتها الوهمية.



٤ ــ الإمـــاتـــة
بحسب الإنجيل

مقدمة عامة

موقف الإنجيل من أعمال الإماتة والتجرد

أولاً ــ ضمان ميلاد الإنسان الجديد، قبل البدء بأعمال النسك التي تختص بالإنسان العتيق:

اتجاه الله في الكتاب المقدس بخصوص تجديد الجبلة البشرية ورفعها من حالة العبودية إلى الحرية الروحية هو بصورة أساسية اتجاه خِلقْي جديد وليس تقويمياً أو تهذيبياً، أي ليس نسكياً في جوهره. فالإنسان من خلال الإيمان والأسرار يدخله الروح ويباشر عمله فيه بواسطة فعل خِلقْي جديد، ويستمر ينمو فيه بالإنارة والإلهام إلى أن يبلغ حرية أولاد الله، إلى الاتحاد الكامل بالمسيح، حيث تؤهَّل طبيعة الإنسان إلى شركة الحياة مع الله.

ولكن هذه الخليقة الجديدة أو الإنسان الجديد المولود حسب الله يظل ينمو جنباً إلى جنب مع الطبيعة القديمة بكل ضعفاتها وميولها نحو العالم.

لذلك يتجه الكتاب المقدس، بجوار الاتجاه الخِلْقي الروحي، اتجاهاً آخر نحو الطبيعة البشرية، أي الجسد وغرائزه، مضمونه القمع والضبط والتهذيب حتى

يضمن صحة ونمو الخليقة الروحانية الجديدة داخل قلب الإنسان.

على هذا الأساس يتحدد مفهوم العمل الذي يضطلع به الله والعمل الذي يضطلع به الإنسان من خلال الانجيل كله. فقول الكتاب: «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣:٧)، يعبِّر عن عمل إلهي محض يقوم على أساس تنازل الله الذي كمل بالتجسد والفداء وسَكْب الروح القدس وتأسيس سر الكنيسة. وقول الكتاب: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة» (مر١٤:٣٨)، و «إن أعثرتْك عينك فاقلعها» (مت ١٨:٩)، يعبِّر عن عمل بشري موكول للإنسان أن يعمله بكل جهده وإرادته، بمؤازرة النعمة خفياً، حتى يضمن قيام ونمو عمل الله. والكتاب المقدس يمكن أن يتوزع كله على أساس هذين الاتجاهين.

ولكن الذي يجب الانتباه إليه، أنه بالرغم من أن الأعمال الموكول للإنسان القيام بها ليست كفيلة بحد ذاتها أن تكون منهجاً للخلاص: «بأعمالي ليس لي خلاص» (صلاة نصف الليل)، إلا أن الكتاب يضعها في موضع الاعتبار الشديد، فالمسيح يقف موقفاً حاسماً تجاه ممارسة أعمال التطهير الداخلي كضرورة تحتِّمها الطبيعة البشرية بسبب ميلها للنكوص والسقوط.

على أن الكتاب المقدس بالرغم من اهتمامه في مواضع كثيرة بأعمال التطهير، أي تلك التي نعبِّر عنها روحياً بأعمال الإماتة أو بالأعمال النسكية: «أميتوا أعضاءكم التي على الأرض»، «أقمع جسدي وأستعبده» (كو٣:٥، ١كو٩:٢٧)، فإنه لا يرسم صورة ممارسات معينة أو قوانين تصلح أن تكون منهجاً نسكياً. وذلك لأن الكتاب المقدس على وجه العموم يَشخَص ناحية الروح كمصدر للمعرفة والتدبير لكل إنسان على قدر ما يوهب. الكتاب يعتمد على الإلهام كطريقة لتدبير الجسد وضبطه، فالجسد في الكتاب المقدس يُعان دائماً بالروح وليس

العكس. الجسد لا يستطيع أن يطهر الروح ولكن العكس صحيح، الروح يقدّس الجسد. والله لا يعطي الروح بمكيال، فكل إنسان يأخذ حسب ما قُسم له. لذلك فالتدبير النسكي ليس له قياس واحد. غير أن الحياة النسكية في المسيح لها سمات أساسية عامة تميزها عن كافة المناهج النسكية في الأديان الأخرى.

المقصد الأساسي للإنجيل من أعمال النسك هو ضمان تحرير الإنسان:

الكتاب المقدس يختص بنظرة اعتبارية فريدة من نوعها بالنسبة لجسد الإنسان والمادة والعالم:

أ ــ فالجسد ليس شريراً ولا هو مصدر للشر، وإنما هو منفعل للخطية ومُنْقادٌ إليها. فإذا كفَّ انفعاله للخطية وتنافَرَ معها صار مؤهَّلاً للقداسة بل ولسُكنى الروح القدس.

ب ــ كذلك العالم، فهو ليس شريراً في اعتبار الكتاب المقدس، ولا هو مصدر للشر: «هكذا أحب الله العالم» (يو٣: ١٦)، ولكنه أُخضع فقط للباطل عن اضطرار ووُضع في يد الشرير بسبب الإنسان. فهو في حالة سقوط يئن ويطلب أن يتحرر منها منتظراً الحرية بفداء «جسد» الإنسان (راجع رو٨: ٢٣). **فحرية العالم، إذاً، مرتبطة بحرية الإنسان الروحية** وهو سيتحرر من خلال الإنسان وليس خارجاً عنه!

الكتاب المقدس قوة روحية محرِّرة تعمل أولاً لتحرير الإنسان، تعمل فيه بلا توقف منذ أن أُرسلت إليه لتحوِّل العالم كله من الظلمة إلى النور ومن الباطل إلى الحق، من داخل فكر الإنسان ومن خلال روحه!

ج ــ المادة بحد ذاتها ليست شريرة في تعليم الكتاب المقدس، وهي في

الإنسـان لا يمكن فصلها عن الروح. فالخليقة البشرية قائمة على أساس انسجام الـروح في المـادة. الـكـتـاب المقدس لا يطلب إلا انفصال الخطية، فهي جوهر الشر وهي العدم نفسه.

إذا تـطـهـر الجسد من سلطان الخطية والشر، استنارت عين الإنسان وصارت له الخـليـقـة كلها طاهرة، وصار هو شريكاً للروح في الرؤى والتجليات والقيامة وكل أمجاد الله. الجسد له نصيب أساسي في التجديد، والكتاب يطمئننا أن المسيح سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (راجع في٣: ٢١).

والـكـتـاب يـنـبـه ذهننا إلى أن مشيئة الله ومسرته هي في تحويل الأرض إلى ما يـشبه سماء وليس في إلغائها واحتقارها: «لتكن مشيئتك **كما في السماء كذلك على الأرض.**» (مت٦: ١٠)

وعلى أسـاس هـذه الـنـظـرة تجاه الجسد والعالم والمادة، يلقي الكتاب المقدس المسئولية كاملة و بصورة صارمة على الإنسان الروحي المولود من الله، بصفته الخليقة الجديدة التي استودعها الله الروح والمعرفة والإلهام لخلاص النفس وتجديد العالم.

الأعمال النسكية تهيىء الإنسان الروحي لقيادة العالم نحو الحرية:

الإنـسـان الـروحـي ليس مسئولاً فقط عن حفظ الجسد طاهراً من كل ميل نحو الشر والخـطية، وعن حفظ سلوكه وتجنُّب كل عثرة وغواية، بل هو أيضاً مسئول عن الـنـاس حوله وعـن الـعـالم المرتبط به الذي سيتحرر بحريته، كما استُعبد وسقط بعبودية الإنسان وسقوطه.

ــ «**لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله.**» (رو٨: ١٩)

ـ «لأن الخليقة نفسها أيضاً ستُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله.» (رو٨: ٢١)

ومن هذا يتبين أن الوصية بالإماتة في الكتاب المقدس لا تعزل الإنسان عن العالم أو المادة لتضمن طهارته ونقاءه، بل تحمّله ضمناً مسئولية السمو بها وتحريرها، لأن روح الإنسان هو عقل الخليقة وقلبها.

صرامة الوصايا النسكية في الإنجيل:

حينما نتأمل الوصايا النسكية في الكتاب المقدس نندهل من فرط عنفها وصرامتها.

فالكتاب يأمرنا بالسهر والصلاة بلا ملل (لو١٨: ١)، وفي موضع آخر «بلا انقطاع.» (١تس٥: ١٧)

كما يطالبنا بإماتة الأعضاء التي تشتهي ما على الأرض (كو٣: ٥)، وقمع الجسد عامة (١كو٩: ٢٧).

ثم فجأة يطالبنا بأن نكون على استعداد لقطع اليد والرجل أو قلع العين إذا وقفت عثرة في سبيل مسيرتنا نحو الملكوت وارتباطنا بالله (مت٥: ٢٩و٣٠).

بل وفي موضع آخر يلهم الشجاعة بأن يطأ الإنسان غرائزه الجنسية حتى إلى درجة الإخصاء من أجل ملكوت الله (مت١٩: ١٢).

كما توجد وصايا أخرى تقوم على مستوى نسكي باطني عالي مثل: محبة الأعداء واستعداد القلب التلقائي لرد الإساءة بالخير، وردّ اللعنة بالبركة، وتحويل الخد الآخر، واحتمال السُّخرة ضعفين (الموعظة على الجبل مت٥: ٤٤)، وتفضيل العُري على المخاصمة (مت٥: ٤٠، لو٦: ٢٩).

المسيح يؤمِّن حياة الإنسان

قبل طرح الوصية النسكية الصارمة:

على أي أساس يبني الإنجيل سلطانه في الأمر بهذه الوصايا الصعبة فعلاً وبصورتها الإلزامية؟

هذا السؤال يكشف لنا غِنَى الإنجيل ولطف الله الفائق وحكمة التدبير الإلهي، لأنه قبل أن يتجه الإنجيل ناحية قمع الجسد وإماتة أعضائه وشهواته، سبق فولدنا ثانية ميلاداً جديداً روحياً، أي أصبحنا مالكين في داخلنا إنساناً آخر روحياً غير منظور بشبه المسيح وحائزاً على قوته، محسوباً ابناً لله ووارثاً للحياة الأبدية.

هذا الإنسان الداخلي هو من الروح القدس وبه يتقوى وينمو ويُعان.

ثلاثة عوامل روحية تقوم عليها وصايا النسك في الإنجيل:

أولاً ــ لكي تستطيع الوصية النسكية في الكتاب المقدس أن تتخذ هذه الصورة العظمى من العنف والصرامة تجاه الجسد: «**لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد**» (مت ١٠: ٢٨)، سبقت أولاً فغرست في داخل الجسد غلبة الحياة على الموت!! واستودعت فيه قوة القيامة وروحها!! «ثقوا أنا قد غلبت العالم»، «لأني أنا حي فأنتم ستحيون.» (يو١٦: ٣٣ و١٤: ١٩)

ثانياً ــ والكتاب المقدس، قبل أن يطلب أن تقلع العين وتقطع اليد والرِّجْل إذا ما صارت واحدة منهن مَعْثرةً لنا في مسيرتنا نحو الله، سبق فولد فينا إنساناً روحياً كاملاً لا تتأثر أعضاؤه بأية قوة على الأرض، لا بالقطع ولا بالنار ولا بالجوع ولا بالموت!!

ــ «من سيفصلنا عن محبة المسيح. أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُرْي

أم خطر أم سيف. كما هو مكتوب أننا من أجلك نُمات كل النهار. قد حُسبنا مثل غنم للذبح. ولكننا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا. فإني مُتيقِّن أنه لا موتَ ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا علوَّ ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.» (رومية ٨: ٣٥—٣٩)

ثالثاً — كذلك فإننا بالقياس المنطقي نلمح تناقضاً شديداً بين الوصية النسكية في الكتاب المقدس وقدرات الإنسان الطبيعية، سواء من جهة الاحتمال أو الإرادة أو بلوغ هذه المستويات الروحية الفائقة. هذا التناقض تلغيه القوة السرية العاملة في الإنسان الجديد لغلبة الطبيعة العتيقة. فقوة الروح القدس المسئولة عن قيام ونمو الإنسان الجديد تؤازر الإنسان في جهاده حتماً طالما هو يتجه روحياً وينحاز لله: «متبررين مجاناً بنعمته»، «بالنعمة أنتم مخلَّصون» (رو٣: ٢٤، أف٢: ٥و٨). هذه المعونة المعبَّر عنها بالنعمة هي سر النصرة دائماً و بلا نزاع، فيستحيل أن يغلب الإنسان أية عثرة وينتصر انتصاراً روحياً لحساب القداسة والبر والحق إلا وتكون النعمة هي سر النصرة المَخْفيّ وراء جهاده ودموعه وتضحياته جميعاً. وفي ختام الحياة وعندما تُقاس أعمال النعمة بالنسبة لأعمال الجهاد والآلام التي جُزناها، نجد أن النسبة هي واحد إلى صفر، و ينتج أننا خَلَصنا مجاناً بالفعل.

الوصية النسكية متداخلة في النعمة بصورة سرية:

إذاً، فالوصايا النسكية في الكتاب المقدس ليست هي مجرد وصايا قائمة بذاتها، أي ليست منهجاً نسكياً مستقلاً، بل هي تخدم حقيقة روحية أعلى، فهي مجرد ضمان لنمو الإنسان الروحي وحفظه من كل ما يُعثره في الطريق، وتأمين مستمر للهدف الذي يسعى إليه أي الملكوت. ولأنها تخدم حقيقة روحية، لذلك فهي من الروح تُعان. فالوصية النسكية يضمنها ويشجعها روح القيامة المغروس في

جسد الإنسان بقوة المسيح المصلوب والمُقَام، ويؤمِّنها ميلاد إنسانٍ روحي آخر غير متأثر بعوارض النسك وخسائره، ويدفعها للتنفيذ والنجاح النعمةُ المؤازِرَةُ خفياً.

الوصية النسكية تؤمّنها القيامة العتيدة والعاملة في الجسد والنفس منذ الآن:

الوصية النسكية تفقد قيمتها ومعناها بل وتصير مجازفة خاسرة، إذا لم يكن هناك قيامة مغروسة في الجسد، وإذا لم يوجد إنسان روحي ينمو بمعزل عن عوارض هذا الزمان لميراث حياة أبدية بالقيامة من الأموات، وإذا لم توجد نعمة مجانية تؤازر في الجهاد وتوجهه نحو هذه القيامة.

الوصية النسكية لا تقف قط عند حد الجهاد:

كذلك، فإن الوصية النسكية لأنها مرتبطة بهدف حي وهو الحياة الأبدية والوجود مع الله، لذلك فإنها لا تقف عند حدود التلذذ بالإماتة والتجرد والتخلية، ولكنها تتجاوزها جميعاً إلى الإحساس بالحياة الأبدية والتطلُّع إلى الله.

لذلك، فالعمل النسكي حسب الكتاب المقدس ليس طقساً مُقْفَلاً ولا ناموساً مواعيدُه بعيدة غير مُدرَكة، بل هو حياة في موت. فبمجرد أن ينحاز الضمير للعمل النسكي، متشبثاً بمواعيد الله وشخص المسيح، فإنه يجد عوناً في حينه، وبمجرد أن يبدأ التنفيذ تبدأ الحياة تسري بدل الموت لحظة بلحظة. فكل إماتة يلازمها قيامة وكل موت يلازمه حياة أبدية.

الموت والحياة يعملان معاً في الوصية النسكية:

إن تلازُمَ الموت والحياة معاً في العمل النسكي ضرورة يشرحها الكتاب المقدس أنها عملية تحوُّل من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، باعتبار أن العمل النسكي تفاعل حي بين الخليقة الجديدة والروحانية، و بين الجسد المستعبَد للخطية

واضطرار الطبيعة . أي أن النسك على وجه العموم ظاهرُه موت و باطنُه حياة ، على أساس أن خارجه صرامة وجهد بشري وجوهره نعمة محيية .

النسك الإيجابي والنسك السلبي :

والكتاب المقدس يعتبر أن انفلات الإنسان من الحياة حسب الجسد و بلوغ حياة حسب الروح في المسيح يُحقق للإنسان منذ الآن عبور الدينونة ، فيرفع عن كاهل الإنسان قليلاً قليلاً الإحساس برعبة الخطية ومذلتها مع كل قضاء الموت : «**لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع** السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو٨: ١). لذلك ، فإن ممارسة النسك إيجابياً ، أي بأن يكون قائماً على المسيح كتفاعل حي بين الخليقة الجديدة وهدفها ، أي الحياة الأبدية ، و بين الجسد وطبيعته المائلة نحو الخطية والفساد ، يصبح بالضرورة عملية تحرير مستمرة من عبودية الخطية وتسلط العالم إلى حرية الروح ، حيث تكون النتيجة تحولاً صميمياً في سيادة الإرادة من الإنسان العتيق الطبيعي إلى الإنسان الجديد الروحي ، كحالة قيامة داخلية ، تمهيداً لتجديد هيئة العالم كله .

أما إذا كان العمل النسكي اتجاهاً سلبياً محضاً كعمل قائم بذاته ضد الطبيعة العتيقة من طرف واحد ، أي غير متفاعل مع الخليقة الجديدة والروح والحياة الأبدية الموجودة في الإنسان منذ الآن ، كعطية الله وهبة المسيح ، فإن العمل النسكي حتى ولو أدى إلى التحرر من مجاذبات الخطية وأعمالها ، إلا أن الضمير يظل مثقلاً بوزر الخطية وماضيها ، حيث لا تملك حياة عوض الموت ، ولا تجديدٌ عوض العتيق ، ولا حرية عوض العبودية ، ولا قداسة عوض الفساد ؛ بل يتمركز الانتباه الفكري كله وحساسية الضمير حول الخطية ، فيزداد هولها في القلب و يزداد رعب الموت ويضعف الرجاء ضعفاً بليغاً . هذا فرق خطير وحيوي بين النسك السلبي والنسك الإيجابي .

العمل النسكي يتضمن تلازم الضعف مع القوة:

الكتاب المقدس يشدد على أن لا يجزع الإنسان من الضعف الجسدي. فبالرغم من أن الله لا يمتنع عليه أن يحيي الموتى ويشدد المخلع ويجبر المكسور والمتحطم ويجعل الواحد أقوى من ألف، إلا أن الله ـــ بالرغم من ذلك ـــ يفضل عامة أن يعمل ويسكب قوته في الآنية الضعيفة. ومهما أصاب الجسد من ضعف ومرض وهزال وموت، فلن تعطّل هذه كلها قوة الله من أن تبلغ أَوَجَ عملها وكمالها في الإنسان: «**قوتي في الضعف تكمل**» (٢كو١٢: ٩). كثيراً ما استخدم الله الإنسان بعد موته أكثر مما استخدمه في حياته.

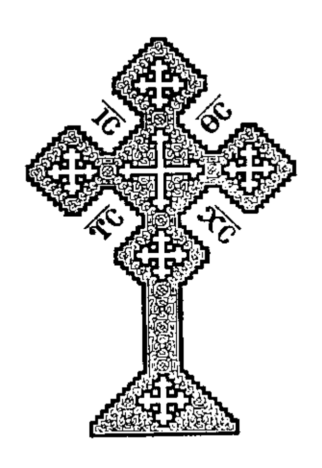
إن سر قوة الإنسان وكفايته يوضحه الكتاب المقدس. فقوة الإنسان لا تقوم على أساس صحة الجسد ولا رجاحة العقل ولا قوة الإرادة: «**فانظروا دعوتكم أيها الإخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون أقوياء، ليس كثيرون شرفاء، بل اختار الله جهال العالم ليُخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليُخزي الأقوياء، واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليُبطل الموجود**» (١كو١: ٢٦ـــ٢٨). إذاً، كفاية الإنسان هي الله، هي المسيح نفسه، هي بعمل النعمة الخفي: «**تكفيك نعمتي**، لأن قوتي في الضعف تكمل.» (٢كو١٢: ٩)

الكتاب المقدس يضع قوة الله رهن ضعف الإنسان حينما يكون من أجل الله معتمداً على الله، حيث تزدهر قوة الله وحكمته في الأُمِّي والضعيف والمنسحق والمكسور، وتغلب وتقهر ربوات حكماء وأقوياء.

الضعف الجسدي وقوة الله بالروح يلتحمان معاً في العمل النسكي الإيجابي، بحيث لا يمكن أن يوجد الواحد بدون الآخر، طالما كان الإنسان

شاخصاً نحو المسيح، معتمداً عليه، منزَّهاً عن الاعتداد بالذات، متلاشياً في نفسه وغير موجود: «حينما أنا ضعيف فحينئذٍ أنا قوي.» (٢ كو١٢: ١٠)

لذلك، فالإماتات المتعددة والضعف والعوز والمرض، هذه التي يحملها الإنسان كآثار للعمل النسكي والجهاد ضد الخطية، تصير له بالنهاية سبب قوة وافتخار، لأنها في الواقع تكون علامات تُنبىء بقيامة أكيدة وحياة شبيهة بآثار الصليب: «سمات الرب يسوع»، مماثلة لسحق اليدين والرجلين بالمسامير وتجريح الرأس بإكليل الشوك، فتصير منذ الآن خَتْمَ عِتْقٍ وبرهانَ حرية: «في ما بعد لا يجلب عليَّ أحدٌ أتعاباً لأني حاملٌ في جسدي سمات الرب يسوع.» (غل٦: ١٧)



٥ ــ الطهارة والعفة
بحسب الإنجيل

الطهارة في العهد الجديد:

نظرة الطهارة والتطهير في العهد الجديد تختلف اختلافاً جذرياً عن مفهومها ومضمونها في العهد القديم.

فالتطهير بالنسبة للطقوس والأشياء والأواني والأجساد غير كافٍ وغير ذي أثر على الروح. صحيح يجب التنقية والغسل خارج الصحفة والكأس، ولكن ما قيمة هذه التنقية وهذا الغسيل الخارجي إذا كانت الصَحْفَة قد امتلأت اختطافاً، والقلب مملوءاً دعارة؟

ــ «و يل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقُّون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. أيها الفريسي الأعمى نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً. و يل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيَّضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثماً.» (مت٢٣: ٢٥ــ٢٨)

إذاً، فالطهارة في نظر المسيح شخصية وليست مادية تختص بالسلوك، تبدأ من القلب من داخل ضمير الإنسان لتملأ حياته. والطهارة بهذا الوضع لها علاقة

مباشرة بالله نفسه: «طوبى للأنقياء (للأطهار καθαροί) القلب لأنهم يعاينون الله.» (مت ٥: ٨)

طهارة القلب هنا كنز ومصدر الطهارة كلها، طهارة الفكر والنية والحواس والجسد. لذلك، فبهذه الآية يكون المسيح قد كشف سر منهج السلوك المسيحي المؤدي إلى رؤية الله، الذي صار محور البشارة بالإنجيل: «اتبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب.» (عب ١٢: ١٤)

مواقف الطهارة والعفة في الإنجيل والرسائل:

— «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزنِ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تُعثرك فاقلعها وألْقِها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم.» (مت ٥: ٢٧—٢٩)

— «قال له تلاميذه: إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج؟ فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أُعطي لهم.» (مت١٩: ١٠و١١)

— «يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع أن يقبل فليقبل.» (مت١٩: ١٢)

— «لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا. لكن كل واحد له موهبته ... أقول لغير المتزوجين والأرامل إنه حسنٌ لهم إذا لبثوا كما أنا. ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن الزواج أصلح من التحرق.» (١ كو٧: ٧—٩)

— «حسنٌ للرجل أن لا يمس امرأة، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد

امرأته. وليكن لكل واحدة رجلها.» (١ كو٧: ١و٢)

ــ «ولكنك إن تزوجت لم تخطىء، وإن تزوجت العذراء لم تخطىء. ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد.» (١ كو٧: ٢٨)

ــ «فأريد أن تكونوا بلا همٍّ، غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب، وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضي امرأته.» (١ كو٧: ٣٢)

ــ «إن بين الزوجة والعذراء فرقاً. غير المتزوجة تهتم في ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً. وأما المتزوجة فتهتم في ما للعالم كيف ترضي رجلها.» (١ كو٧: ٣٤)

ــ «وأما من أقام راسخاً في قلبه وليس له اضطرار بل له سلطان على إرادته وقد عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراءه، فحسناً يفعل.» (١ كو٧: ٣٧)

ــ «المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حياً. ولكن إن مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرب فقط. ولكنها **أكثر غبطة** إن لَبِثَتْ هكذا.» (١ كو٣٩: ٤٠)

ــ «أنوح على كثيرين من الذين أخطأوا من قبل ولم يتوبوا عن النجاسة والزنا والعهارة التي فعلوها.» (٢ كو١٢: ٢١)

ــ «قد حكمت ... في الذي فعل هكذا (الذي كان يعيش مع امرأة أبيه) باسم ربنا يسوع المسيح، أن يُسلِّم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع (ويظهر أنه لم يكن يريد أن يتوب) ليس افتخاركم حسناً.» (١ كو٥: ٣ــ٦)

ــ «أفأنتم منتفخون و بالحري لم تنوحوا حتي يُرفع من وسطكم الذي فعل هذا الفعل ... لا تخالطوا الزناة ... إن كان أحدٌ مدعوٌّ أخاً زانياً ... لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا.» (١ كو٥ : ٢و٩و١٠)

ــ «لا زناة ... ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ... يرثون ملكوت الله، وهكذا كان أناس منكم. لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح إلهنا.» (١ كو٦ : ٩ــ١١)

ــ «كما أن سدوم وعمورة والمدن التي حولهما إذ زنت على طريق مثلهما ومضت وراء جسد آخر، جُعلت عبرة، مُكابِدةً عقاب نار أبدية.» (يهوذا ٧)

ــ «ولكن كذلك هؤلاء أيضاً المحتلمون ينجسون الجسد ويتهاونون بالسيادة ويفترون على ذوي الأمجاد.» (يهوذا ٨)

ــ «ولا نزنِ كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً.» (١ كو١٠ : ٨)

ــ «اهربوا من الزنا. كل خطية يفعلها الإنسان هي خارجة عن الجسد. لكن الذي يزني يخطىء إلى جسده. أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله؟ وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتُريتم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله.» (١ كو٦ : ١٨ــ٢٠)

طهارة الجسد وطهارة النفس:

الطهارة أو العفة في المضمون الروحي بالنسبة للإنسان المتزوج أو البتول تنصَبُّ على **الجسد والنفس** كليهما.

أما الجسد الطاهر المتعفف فهو الجسد المحفوظ بحواسه سليمة من أي إفراط أو شذوذ جنسي، **مقدَّماً لله (الجسد)**، إما في عذراوية نقية أو تبتُّل، أو زيجة أمينة في التزام سر الكنيسة.

وأما النفس الطاهرة المتعففة فهي النفس المحفوظة من شهوة الجسد والعالم، **مقدَّمة لله** وحده برباط الحب والأمانة لتكون عروساً لله ـــ في زيجة روحية أمينة له أمانة مطلقة إلى حد الموت.

والعفة الجسدية إن كانت تهددها النجاسة، فالعفة النفسية يهددها انقطاع المودة مع الله.

طهارة الجسد يكسرها الاتصال بجسد آخر في غياب الله، أي بدون الكنيسة. أما طهارة النفس فيكسرها البعد عن الله، لأن بمجرد الابتعاد عنه تشتعل الشهوة بالنظر والقلب ثم الحواس.

الطهارة أو العفة بحسب الإنجيل لها وجهان: وجه بشري ووجه إلهي:

الوجه البشري ينحصر في عملين: الأول عمل الضمير أو النية بأن يشتهي الإنسان الطهارة في قلبه و يطلبها من الله ويعزم عليها بكل ضميره.

والثاني، عمل الإرادة بأن يسلك في الطريق الذي يتناسب مع الطهارة ويؤدي إليها، مهما كلَّفه من جهد، ويقاوم كل نجاسة بأية صورة تُعرَض عليه.

الوجه الإلهي: وهو عمل الروح القدس الذي يسكن الهيكل الجسدي والنفسي المحفوظَين لله ويقدِّسهما كرد فعل أو كاستجابة لاجتهاد الإنسان وحفظه حدود طهارتهما.

أي أن الطهارة إذا كملت بالإرادة والنية، وإذا حفظ الإنسان جسده ونفسه

لله ، فإن الإنسان يتأهل لتقديس الروح القدس ، أي يصير مقدساً لله ، أي يصير من خاصته ومختاريه . لذلك فكل عمل أو اجتهاد يزيد الطهارة ، هو نفسه يؤهل للقداسة .

الله يطلب طهارتنا لكي يستطيع أن يسكن فينا ونتحد به . لذلك فكل من اشتعلت فيه محبة الله ، اشتعلت فيه محبة الطهارة بلا حدود . الله هو الذي يسكب فينا محبة الطهارة ويشعلها بزيارات النعمة التي هي مَدَدٌ من الزيت الإلهي ـــ برسم الخمس العذارى ـــ المعدّ للإنارة أمام العريس .

المسيحية بجملتها نذر عفة وطهارة :

العفة غريبة كلية عن الطبع الحيواني ، فهي من أخص خصائص البشرية المنجذبة إلى الله مصدرها ، لذلك يرفعها الكتاب المقدس إلى مستوى الذبيحة ، كعمل مقدس يقدمه الإنسان لله بفرح ، وكل مرة ننتصر في معارك الطهارة نقترب في الحال من الله ونشعر بالقُربى .

وفي الواقع ، المسيحية كلها ديانة نذر لله ، فإذا استثنينا من الكنيسة أو من الفرد مضمون الجهاد في مضمار الطهارة والتعفف بتقديم الحياة جسداً وروحاً قربان مسرة وذبيحة فرح وسلام ، فلن يعود للمسيحية معنى ولا أثر فعال : «إني خطبتُكم لرجل واحد لأُقدّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢ كو١١ : ٢) . هكذا ينظر القديس بولس الرسول إلى الكنيسة بأسرها .

الصليب هو مذبحنا
الذي نقدّم عليه ذبيحة طهارتنا كل يوم :

الكتاب المقدس يقدم لنا الصليب بمضمون عملي ، كمذبح حقيقي يضعه في أعلى مكان من قلب الإنسان وفكره ليقدّم عليه أثمن ما عنده . فالحياة في المسيح

يسوع جهاد وحب، وصلب ذات، كاستجابة واعية لنداء المسيح والسير معه «حسب الروح»، حيث يصير الصليب مذبحاً حقيقياً داخل قلب الإنسان، يتم عليه صلب الجسد وأعضائه كل يوم: «من أجلك نُمات كل النهار.» (رو٨: ٣٦)

والصليب نيرٌ حلو، فيه قوة جاذبة تجذب كل من يقترب إليه!! ولكن قبل كل شيء، الصليب يعني ألماً، يعني معاناة!! ويستحيل أن يخلو من آلام وشدة وتوتر ومخاض يبلغ أحياناً إلى درجة الموت إذا كان التاج قد أُعدّ.

ولكن هذه الآلام عينها هي جزءٌ حي في مضمون الذبيحة، وهي بمثابة ختم ناري على الجسد، يصير الجسد بمقتضاه قرباناً إلهياً. العفة لا تتصور في قلب إنسان وجسده إلا بعد أن يجوز الإنسان مراحل عدة من النضال الذاتي، النفسي والجسدي، الذي يرفع العبادة كلها إلى أقصى مضمونها السري كفعل تقديس جسد وتكريس حياة لله.

إذا اعتفى الإنسان ـــ خوفاً من التعب وعطفاً على الجسد ـــ من أن يدخل هذه المواجهة الإنجيلية بإرادته لتزكية وتغليب كل ما هو مقدس ضد كل ما هو غير مقدس جسداً ونفساً، فسوف يضيّع على نفسه فرصة تقديم ذبيحته فارغاً من بركات الصليب والإنجيل، حيث لا يجد ما يزكّي به عبادته.

كل مرة نقترب فيها من الصليب كمذبح حقيقي ونقدم عليه قربان حياتنا الذي هو ضبط الجسد وصلب أعضائه وجعلها آلات برٍّ لله حسب جهاد عبادتنا الممزوج بالعرق والدم: «لم تقاوموا بعد حتى الدم» (عب ١٢: ٤)، نحوز على قدر من تقديس الروح يؤهلنا أن نصير أعضاءً أكثر ملاءمة للاتحاد بجسد المسيح السري.

رفعت عيني نحو الصليب من حيث يأتي عوني:

إن دعوة الكتاب المقدس جملة تتلخص في طلب «القداسة التي بدونها لن يري أحدٌ الرب» (عب١٢: ١٤). لذلك فالعبادة المسيحية التي تهدف من أساسها لرؤية الله والوجود معه، لا قياس لجهادها إلا بمقدار ما يجوز الإنسان من أفعال إماتة شهوات وأطماع الجسد والنفس. هذا هو التقديس، حيث كل فعل تقديس للجسد أو الروح يلزم أن يقابله استجابة عنيدة واعية بلا أي تحفُّظ لنداء المسيح من فوق الصليب: «فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠). هذا النداء نحسه كضغط للنعمة يسري في تفكيرنا وعواطفنا، يزكي منهج الطهارة والتدقيق، ويشجعنا ويدفعنا إليه بقوة تفوق قوتنا. فالله الذي يطالبنا أن نكون قديسين مثله، يجذبنا بقوته سراً نحو القداسة ويحببها إلى قلبنا.

فرض العفة كإلزام، يقابله سخاء النعمة كعطاء:

الكتاب المقدس من جانبه يفرض العفة فرضاً صارماً، لأنه يطلب أن يكون الإنسان ابناً لله وأن يصير جسده هيكلاً للروح القدس. وفي صرامته هذه يعتمد على وجود النعمة ومؤازرتها لكل محاولة صادقة من طرفنا لأجل تحقيق القداسة.

الكتاب المقدس يفرض علينا ذبيحة العفة بما فيها من أتعاب وتضحيات، لأنه سبق وقدَّم لنا ذبيحة الفداء بما فيها من موت. فالقداسة التي يطلبها منا الكتاب المقدس هي في الواقع شركة في عملية الفداء بأسرارها العميقة الفاعلة في طبيعتنا مجاناً، بقوة المسيح و برِّه الشخصي للتقديس والحياة.

هنا فرض العفة بالعمل النسكي مع الضبط والتدقيق المتواصل، قائم أصلاً على قوة فعل التقديس الموهوب للطبيعة البشرية بالفداء ومنبثق منه.

فالإنجيل يطالبنا بالعفة لأنه منحنا القداسة بالمسيح: «الذي صار لنا حكمة من الله وبراً **وقداسة** وفداء» (١كو١: ٣٠)، ويفترض أننا سنتألم ونتعب ونضحي، ولكنه لا يبالي بذلك، لأنه متحقق من القوة الممنوحة لنا ومن الجزاء العجيب الذي لا يتناسب في مجده مع بساطة التعب المبذول والتضحيات القليلة: «لأن خفَّة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجدٍ أبدياً.» (٢كو٤: ١٧)

واتحاد العمل النسكي بسر الفداء لتكميل مطالب العفة والقداسة في حياتنا هو من صميم عمل الروح القدس ـــ التقديس ـــ الذي يكمله فينا من خلال واجبات العبادة المطلوبة منا من صلاة وصوم وسهر وممارسة كافة الأسرار ووسائط النعمة المختلفة.

والمسيح حينما يتكلم ويوصي بالعفة والقداسة ـــ سواء للمتزوجين أو البتوليين ـــ لا يغفل أن يصوِّر في ذهننا ضمناً جسده الممزق على الصليب وأعضاءه التي ماتت فعلاً: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبائي ...» (يو١٥: ١٣و١٤). لذلك فهو يلمِّح على إمكانية قطع الأعضاء أو قلع العين، دون السقوط في العثرات، لتكميل مطلب القداسة كشرط في الصليب، كذبيحة حب مصغَّرة؛ كذلك يطلب أن يغرس فينا روح الصليب نفسه ليمنحنا ـــ سراً ـــ قوة الفداء وسر الحب.

لأنه عسير جداً أن يتقبل الإنسان سر الفداء والتقديس وفاعليته في الجسد والروح، إلا إذا استعد وتأهَّل له بالجهاد الشخصي ليتم التقابل، كانجذاب المثيل للمثيل، وذلك بأن يكون قد مارَسَ الإنسان العفة بالبذل الجسدي على مستوى مطالب القداسة الإلهية: «**الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء** والشهوات» (غل٥: ٢٤). هذه تكاد تكون ضرورة حتمية.

وبذلك، فالمسيح بتشديده على القداسة عامة، وعفة الجسد خاصة، يفتح أمام الإنسان الطريق الموصل إلى الله عَبْر نفسه، عَبْر الفداء وبقوته: «أنا هو الباب» (يو١٠: ٩)، حيث يصير للإنسان، بعد أن يجاهد قليلاً، ما يعبِّر به عن حبه وولائه أمام الله بصورة إيجابية ضمن ذبيحة المسيح وبإلهامها.

حياة الطهارة عبور من الزمني إلى الأبدي:

العفة هي من الأفعال السرية الفريدة التي تفك الحواجز التي تفصل بين المادة والروح، بمعنى أن الإنضباط بمؤازرة النعمة للارتقاء فوق الغرائز، وبالأخص الجنسية منها، هي حالة ترقى بالجسد لتكون على مستوى الروح. فالذي يعيش نعمة التعفف يحيا في الجسد وفي الروح معاً، أو بالحري يرتقي بالجسد ليعيش كملائكة الله. فتقديس الجسد لله بجهاد الطهارة اللذيذ (من خلال قوة الصليب والفداء) يغرس في الجسد الميت (بالخطية) روح القيامة والحياة. هكذا يتحول الترابي إلى سماوي، ويكتسب الجسد الزمني الزائل عربون قوة الخلود مع الله، كقول الإنجيل الواضح: «إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد **فستحيون**.» (رو٨: ١٣)

ومن هنا نستشف أن مطلب العفة ضرورة مطلقة، وهو موازٍ لفعل الأسرار للتحول العتيد أن يتم للإنسان، بمعنى أن حفظ القداسة وتكريمها بتقديس الفكر والقلب وأعضاء الجسد لتكون لله، إنْ بالبتولية المطلقة أو بالزواج المتعفِّف عن المتعة والانصباب وراء الغرائز للذة والتسلية، هو فِعْلٌ متمم للأسرار، وجزء هام في طريق الخلاص ومن متطلبات الإيمان بالله، وجواب حتمي لحب الله لنا: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

لذلك، فإن نداء العفة والطهارة هو إلهام مغروس من الله في طبيعة الإنسان منذ

البدء، كطاقة إلهية لازمة لتحويل ما هو جسدي إلى ما هو روحي، يحسها الإنسان منذ القديم وينزع إلى تحقيقها دائماً، محاولاً بشتى الطرق النسكية الصعبة لكي يرتفع فوق ذاته كمحاولة مستمرة للاستجابة لهذا الإلهام أو هذه الدعوة الأبدية التي من الله نحو الإنسان، التي استودعها في صميم طبيعته، وأكمل سرَّها وفِعْلها بنفسه في نفسه على الصليب، لمنح الإنسان قوة التحول والارتقاء من البشري إلى الإلهي، من الحياة حسب الجسد إلى الحياة حسب الروح؛ حتى يتأهل الإنسان بالنهاية لرؤية الله والوجود الدائم مع القدوس.

الطهارة نعمة من البداية حتى النهاية:

ولكن هذا التحول من الحياة حسب الجسد إلى الحياة حسب الروح بجهاد العفة، وإن ابتدأ كمحاولة بشرية، إلا أنه لا يتم إلا بسِرٍّ إلهي، بقوة تُمنح من الله بالروح القدس في شخص يسوع المسيح الذي يملك وحده إعطاء البشر ما لله، إذ هو الوسيط الوحيد بين الناس والله! لأن الإنسان بإمكانياته الطبيعية أضعف من أن يسود على غرائزه أو يرتقي بها. ولكنه بإلقاء رجائه بالتمام على النعمة واعتماده على قوة الله في شخص يسوع المصلوب، يحوِّل كل إخفاقاته في طريق الجهاد، مهما بلغت، من اليأس إلى نصرة وسيادة في النهاية، حينما تشرق عليه النعمة ويُستعلن المسيح في حياة الإنسان وتفكيره وسلوكه. لأن المسيح الذي وعد أن يعطينا اليوم النصرة على أهواء الجسد العتيق، إن تمسكنا به بإيمان وثقة، هو الذي سيضطلع أخيراً بتغيير «شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده **بحسب عمل استطاعته.**» (في ٣: ٢١)

ثانياً : توجيهات لممارسة وصايا النسك

ـ العواطف الجسدية المتبقية داخل قلبك التي تتحكم في تصرفاتك وتسبب لك العثرات المتوالية هي التي تحتاج إلى أعمال الإماتة .

ـ كل تصرفاتك وأفكارك وأنواع سلوكك الأُولى كانت تتخذ طريقها إلى الظهور والعمل بأسهل الطرق وأقلها مقاومة من جهة الضمير والحق ؛ فكان كل منها لا يكاد يخلو من مناقضة واضحة للحق . الآن يبتدىء الضمير يستيقظ ويتشدد ، والحق يضيء مصباحه ويقف يفحص كل حركة في الفكر والقلب والجسد . هذه هي بداية أعمال الإماتة .

ـ اعتياد مراكز الفكر والتدبير والتصرفات التلقائية إلى استجابة مطالب الجسد استجابة سهلة بدون معارضة ، والترحيب بكل شهوة واستكمال كل مطالبها ، يجعل عملية التحويل وصدّ كل الرغبات والانفعالات الهوجاء وفتح مسالك جديدة في قوى التفكير والعاطفة والإرادة لموافقة الروح ومطالبها ، مسألة شاقة في البدء . هذا هو سبب مشقة أعمال الإماتة .

ـ كل الاستجابات السهلة التي اعتاد عليها العقل والمراكز العصبية وأعضاء الجسد وعملياته الفسيولوجية والنفسية في مُراضاتها لشهوات الجسد والنفس وموافقتها لكل نداءات الظروف واغراءات العالم ، يلزم أن تكف عن رعونتها وتنضبط . هذا يحدد اتساع المدى الذي تمارَسُ فيه أعمال الإماتة .

الصراع بين القديم والجديد داخل العقل والقلب والجسد والنفس بكل عملياته الـداخلـية الملحوظة وغير الملحوظة والمعروفة وغير المعروفة، يشتد بقدر استضاءة الحق داخـل قـلـب الإنـسـان. لـذلـك، فالصراع الذي يعانيه القديسون العظام في مرحلة التطهير وممارسة أعمال الإماتة صراع مهول يتناسب مع جلاء الرؤيا أمامهم وإدراك الحق وصلابة أخلاقهم.

ـــ أعـمـال الإمـاتـة وإن كـانـت تنتهي فعلاً بإماتة كل الرغبات والانفعالات المـتـعـلـقـة بشهوات العالم والجسد، إلا أنها منذ أول لحظة حتى النهاية هي أعمال حـيـاة. فبقدر ما تموت رغبات وانفعالات سفلى تحيا رغبات وانفعالات عليا، ترفع النفس والجسد إلى مستويات إلهية في طبيعتها. وهذا السر الذي يجعل أفعال الإماتة محبوبة ومحتملة بالرغم من مشقتها.

ـــ كـل فـعل إماتة يقوم به الإنسان بإخلاص، ينبثق منه حياة جديدة للإنسان خـطـوة بـخطوة، ومجال التدرج في أفعال الإماتة يعتمد مباشرة على ما يجنيه الإنسان مـنـهـا إيجـابـيـاً. فبقدر ما يذوق الإنسان من طعم الحياة الأبدية وصفاتها التي تبدأ تسكن فيه، بقدر ما يستزيد من أفعال الإماتة. وهذا هو سِرُّ نَهَم القديسين في القيام بأعمال الإماتة.

ـــ قـدرة الإنـسـان على احتمال أعمال الإماتة، سواء كانت إرادية أي يقوم هو بـهـا مـن تـلقاء ذاته، إن كان صوماً أو سهراً أو خدمة أعمال حقيرة أو بذلاً من أي نـوع؛ أو كـانـت غير إراديـة كاحتمال كلمة إهانة أو قبول ظلم أو تجنٍّ أو خسارة أو جـوع أو عوز أو مرض؛ قدرة الإنسان هذه على احتمال هذه الأعمال تعتمد اعتماداً مـبـاشـراً على مدى استقامة ارتباط الإنسان بالهدف الإلهي الذي يسعى إليه وحرارة المـحـبـة نـحـو الله. على أن وجـود أي مـيـل جـسـدي أو ذاتي مختبىء داخل القلب

النفس يهبط فجأة بمستوى احتمال الإنسان دون أن ينتبه الإنسان. فيثور الإنسان لكلمة إهانة بعد أن يكون قد طوى السنين صوماً.

ـ هنا تبدو ضرورة التجرد كسابق للإماتة. وفوق الكل استقامة غرض الإنسان في المسير على الطريق الضيق وصدق ارتباطه بغاية واحدة هي الاتحاد بالله.

أعمال الإماتة تكشف للإنسان مدى صحة نفسه وصدق غايته ومقدار حبه واستقامة غرضه. فهي في الحقيقة منهج سليم لإخضاع الجسد للروح بدوافع وأغراض سليمة حيث يكون العمل من الله لله. وفي اللحظة التي يتحرر فيها الروح ويخضع الجسد تكون الإماتة قد أدت مهمتها.

ـ لذلك فالإماتة تستمر بقدر ما يحتاجها الإنسان وليس بقدر ما يشتهيها في ذاتها، فهي ليست غرضاً ولكنها وسيلة.

ـ حينما تثمر أعمال الإماتة، وحينما تسكن الحياة الأبدية داخل النفس، ويملك السلام وتثبت الصفات الجديدة بشهادة السلوك والضمير، حينئذ تصير أعمال الإماتة صفات إيجابية للإنسان الجديد. إذ تظل النفس في فرح وسلام وهدوء ورؤيا دائمة وعشرة مع الله.

ـ المحبة الإلهية الصادقة هي التي تدعو النفس للدخول في أعماق الإماتة، حتى إذا تطهرت من كل ما يعوق سُكْنى المحبة الإلهية فيها، حينئذٍ فإن المحبة الإلهية التي دعت النفس للنضال والصدام والدخول في أشق أعمال الإماتة، تعود هي نفسها وتتوسل لدى النفس أن تكف عن شقائها عندما تصبح في أمان المحبة واحتماء الاتضاع. «كفاك. كفاك تعباً يا حبيبي بولا»، هذا الصوت الإلهي سمعه القديس بولا الطموهي، وأطاعه في الحال لأنه هو هو الصوت الإلهي الذي دعاه أولاً للجهاد والتعب.

ـــ لا يعسر على الذين جازوا أعمال الإماتة عن صدق نية وإخلاص لله والطريق أن يدركوا من أين يبتدئون، وإلى أين ينتهون، ومتى يجهدون، ومتى يستريحون. لأن الذي يحب الله لا يتوه عن الله، والذي يطمع أن يزيد فوق المحبة عملاً آخر أعلى، لا يستطيع. وحينما تملك المحبة الحقيقية تهرب كل صور الخطيئة وإلحاحاتها من الذهن والقلب ولا تجرؤ أن تقترب حتى ولا من بعيد.

ـــ هذا يكون دليلاً على أن الطبيعة الجديدة للنفس بلغت نضجها وأثمرت ثمارها ولا تحتاج إلا لليقظة الدائمة وما يناسبها من أعمال.

ـــ الإماتة يمكن أن تُفحص بوضوح أكثر إذا واجهنا الشخصية البشرية من ناحية تعلقها بالذات أي تمركز الإنسان في ذاته، حيث أن الانجذاب إلى الذات هو العلة لكل سلوك أو ميل منحرف عن الحق.

ـــ فالإلحاحات الصادرة باستمرار من غريزة محبة الذات ـــ أي الأنانية ـــ تدفع الإنسان أن يسلك خلاف الضمير ونداء الحق، ويختار المركز الأفضل والنصيب الأوفر والطريق الأسهل والعمل الأكثر راحة. يُعتبر هذا، من وجهة نظر الروح، ضموراً في محبة المسيح، ومسخاً لشخصية الإنسان العظيمة التي يناسبها البذل والتضحية والنظر إلى فوق لطلب ما هو أعظم حقيقة وما هو أفضل وأوفر وأبقى. هنا تتجه أفعال التجرد والإماتة مباشرة نحو الذات المسئولة عن ضياع القيمة الحقيقية للإنسان، هنا يُقصد بالإماتة، إماتة الذات عن مطالبها الدنيوية الفانية، حيث تموت شهوة الذات الترابية لتحيا بالروح لاشتهاء ما هو حق.

ـــ الإماتة لها غاية وهدف داخل الإنسان أكثر من كونها مجرد أعمال قمع وضبط وتحويل، غاية الإماتة صلب الذات ودفنها لتموت عن العالم وتحيا فيما لله. فالذات هي التي تجعل الحواس تنمو وتنشط وتتسلط حتى تصير الحواس قوة خطرة

داخل الشخصية تجذبها نحو الفناء.

ـ إذا ترك الإنسان «الذات» تعبث بالغرائز والحواس وتمادى في تنشيطها وارهاقها، فإنه يأتي وقت لا يستطيع الإنسان أن يتحكم في غرائزه أو يضبطها، فتصير كجروح لا تشفى تستنزف كل قيمة الإنسان. أعمال الإماتة لجام مقدس للذات ورباط محكم للغرائز، يقودها في طريق القداسة حتى يوصلها إلى الله صاحبها.

ـ الإماتة فوق كونها لجاماً للذات يقودها إلى أعلى، فهي أيضاً قوة لا يُستهانُ بها لإخماد جموح الحواس والغرائز والتهابها الفائق عن الحد الذي ينذر دائماً بالخطر، **فقوة الغريزة لا يوازيها لدى الإنسان إلا قوة الإماتة، أما قوة النعمة فلا يمكن أن تتخلى عن المجاهد.** لأن أعمال الإماتة تتجه كلها لمؤازرة الروح للنفس في جهادها وامتدادها نحو الله.

ـ إحساس الإنسان بذاتيته أو نشاط غرائزه الزائد يعطل سيره ويقلقه. وبمجرد أن يبدأ في التجرد والإماتة، يظهر للإنسان بوضوح مدى خطورة التمركز حول الذات ومدى خطورة تنشيط الغرائز الزائد عن الحد، لأن الصراع يبدو شديداً وتبدو الذات متحصِّنة وتبدو الغرائز كقوة وحشية لا تُضبط، بعكس ما كان يظن الإنسان في نفسه. ولكن بالمثابرة يخف الصراع وتنهزم الذات وتخمد الغرائز.

ـ أعمال الإماتة يلزم أن توجَّه بحكمة، لكي تجعل الذات أن لا تتسلط على النفس وتجعل الغرائز أن لا تتسلط على الذات. فإذا توقفت الذات عن ظهورها في السلوك والانفعالات وتوقفت الغرائز عن إلحاحها ونشاطها، كان ذلك إيذاناً بأن الإنسان تهيأ للإنطلاق بالروح في طريق الله بلا عائق وأصبح قادراً فعلاً أن يعيش مع الله.

ــ أعمال الإماتة يجب أن يكون هدفها روحياً محضاً، ذلك لأن نعمة الله تُصوِّرها في قلب الإنسان بصورة مقدسة وتطرحها في طريق الإنسان كفرصة إلهية. فبمجرد أن يبدأ بها الإنسان يشعر كأنها استجابة حقيقية لنداء الله، وذلك بسبب ما يلازمها من عزاء وقوة والتهاب يشمل كل نشاط الإنسان وعبادته. وحينئذ يطغى على روح الإنسان شعور كشعور الشهيد الذي تلتهم النار ذبيحة جسده.

ــ أعمال الإماتة تثبت حقيقة نفسها في قلب كل إنسان مسافر على طريق الله، إذ يحسها الإنسان أنها أشهى من الحياة نفسها. فالألم من أجل الله موهبة، وهذا هو قانون المحبة، وهو بحد ذاته قوة دافعة على الطريق، وكل فعل إماتة صادق يحمل في صميمه درجة صعود، مهما كان، حتى ولو خدمة صغيرة لمسكين أو كأس ماء بارد لعطشان.

ــ لكي نبلغ إلى الفرح الحقيقي الذي لا يُنزع منا، يلزم أن نواجه الإماتة كفعل ألم حقيقي نقبله بدون فحص. ولكي نتحد بالحق الإلهي يلزم أولاً أن نُفرِّغ من أعماقنا كل باطل. واحتمال الإماتة بدافع محبة الله لابد أن يوصل إلى محبة الله.

ــ أعمال الإماتة، بقدر ما تدخل بالنفس إلى أعماق الأحزان والتعب والألم، بقدر ما تطير أخيراً إلى فوق لتُدْخِلَنا في صفوف الأرواح المبررة المكملة بالمجد والبهاء.

ــ ولكي تنجح أعمال الإماتة، لا بد أن يكون في اعتبار الإنسان أن الله لا يُكَافِىء عنها بالأرضيات، ولا يُظهر نفسه في المحسوسات كتعويض لعزاء الإنسان، ولا يطبق قانون الحق في الزمنيات كأن ينصره مثلاً على خصمه أو يرفع شأنه على أعدائه، ولا يُظهر حنانه وعطفه وحبه على مستوى الجسديات ليشفيه من مرضه أو يرد ألمه وعوزه. وإنما الله يعمل كل شيء ويُظهر نفسه بكل طريقة في حياة

الإنسان الداخلية، أي في إنسانه الجديد، بالعزاء والفرح والنصرة والقوة والرجاء الذي لا يُحَدُّ، بالروح. فبقدر ما يفنى الخارج بأعمال الإماتة، بقدر ما يتجدد الداخل ويحيا.

— لذلك فأعمال الإماتة لا يعوِّض الله عنها بأوضاع جسدية في العالم بأي نوع. فالله يعمل فقط في إنساننا الداخلي الجديد الذي به سنراه ونحيا معه.

— أعمال الإماتة حينما توجَّه نحو الذات لإلغاء جذبها للشخصية بعيداً عن الله، وحينما توجَّه نحو الغرائز وإبطال فعلها حتى لا تجمح بالجسد والنفس نحو العالم وملذاته، تكون أعمال الإماتة في الواقع عاملاً أساسياً لتوحيد الشخصية الإنسانية وإعدادها للاتحاد بالمصدر الطاهر الذي انحدرت عنه.

— الإماتة لا تلغي الذات، ولكنها تلغي سلطانها وسيطرتها على نشاط الإنسان وسلوكه و بالأخص عبادته، فتبدو الذات ميتة للعالم والعالم ميتاً لها ولكنها تصبح حية لله، تستمد منه صفات جديدة روحية تعويضية، وهي الجرأة في البذل والشجاعة في التضحية، والقدرة على المجاهرة بالإيمان، والشهادة للحق على أساس استعدادها للموت بفرح.

— الإماتة لا تلغي الغرائز، ولن تلغي جنوحها ناحية الشر والباطل، أو تبطل إلحاحها الزائد عن الحاجة الذي يسوق الإنسان لمسايرة العالم. فبالإماتة يصبح الإنسان قادراً أن يوجه الغريزة لخدمة الحق والقداسة والرحمة والمحبة الطاهرة بعد أن كانت الغريزة توجه لخدمة الجسد والعالم وأوهام كلها باطلة.

— الغريزة تظل تعمل في الإنسان، فيفرق بين ما هو جميل وقبيح فينحاز للجميل، و بين ما هو صحيح ومريض فينحاز للصحيح، و بين ما هو قوي وضعيف

فينحاز للقوي، وبين ما هو سهل وصعب فينحاز للسهل. ولكن الإنسان إذا نجح في أعمال الإماتة وضبط غرائزه، يستطيع أن يخدم كليهما ويحترم كليهما، ويعطف عليهما، الجميل كالقبيح والصحيح كالمريض والقوي كالضعيف والسهل كالصعب، وبالتساوي دون تحيز. لأن الذات التي كانت تميز الجمال والصحة والقوة والسهولة وتعطف عليها لذاتها تكون قد تخلّت بالإماتة عن سلطانها على الغريزة، فتكف عن أن تطلب ما لنفسها، وتصير تخدم وتبذل وتنفق بعد أن كانت تشتهي وتستعبد وتملك.

ــ الإماتة تجعل كل الصفات والأشكال والطبائع والأحوال والمناظر والحالات على وجه العموم، سواء كانت في الإنسان أو الحيوان أو بقية الخليقة، تجعلها تعمل معاً داخل قلب الإنسان بنظرة متسامية، لغاية مقدسة، فيها يُستعلَن الحق الكامل المختبىء وراء كل هذا التباين الظاهري في العالم، الذي تسبق العين البسيطة المتواضعة وتراه في كل شيء بلا تحيز!

ــ بقدر حساسية الغرائز في الإنسان ورهافة مزاجه وذوقه، بقدر ما ينغلق الإنسان على نفسه ضد صور وأشكال وأحوال وطبائع كثيرة من الناس، فلا يعود يطيقها أو ينسجم معها، إذ تتحكم فيه حاسة الاختيار والتحيز والتعالي والاشمئزاز. فإذا كانت الذات أيضاً نشيطة ونهمة، ضاقت دائرة الإنسان أكثر في علائقه مع الناحية الضعيفة والمريضة والعاجزة في الخليقة. وهكذا يبدو الإنسان عبداً لذاته وملذاته، مبتعداً مترفعاً عن كل ما لا ينفعه أو يهواه، فَزِعاً من منظر المرضى وروائحتهم، جَزِعاً من تصور أي ضعف أو خسارة.

ــ الإماتة تفك هذه الرُّبُط الغاشة الوهمية، وتحرر شخصية الإنسان من عبودية الغرائز والأمزجة المتحيزة، فيبدو العالم كله وحدة صديقة منسجمة داخل قلب

الإنسان. لذلك فالإماتة هنا تبدو مصدر حرية رائعة للإنسان تتسبب في إعادة الانسجام المفقود بينه وبين الخليقة كلها وتهبه انفتاحاً وتقبُّلاً لكل ما فيها، كسيد عليها وخادم لها جميعاً.

ـ على أن الإنسان في كل الإماتة لا بد أن يواجه النكسات تلو النكسات من فرح إلى حزن، من غيرة والتهاب وشجاعة إلى هبوط وتوقف وفتور، من أمل ورجاء ونور إلى عدم إحساس و بلادة وظلمة خانقة، من رؤى وإشراقات إلى حروب أفكار شريرة وصور ومناظر وشهوات. هذا التأرجح في الطبيعة النفسية يمثل الامتداد إلى مرحلة الاستنارة ثم النكوص إلى حالة ما قبل اليقظة، وهذه حالة قائمة بذاتها يعاني منها حتماً كل من يسلك في الطريق الروحي، وهي تمهد إلى درجة الهدوء والصفاء التي تبلغها النفس بعد بلوغها درجة المسكنة الحقيقية والإخلاء.

ـ وهذه النكسات التي يعانيها الإنسان في مرحلة التجارب لا تكون سهلة، فهي أشق مرحلة يعانيها الإنسان في حياته، لأن أثناءها يبحث الإنسان عن أي سند أو مُعَزٍّ أو برهان على سلامة المسير بأية وسيلة فلا يجد. هنا لا يسعف الإنسان إلا الصبر الكامل دون أية محاولة لتغيير الوضع، فالرضى بالواقع هو بحد ذاته قوة حافظة، لأن في وسط الظلمة الحالكة واليأس يشرق وجه الله بتعزيات فائقة تُنسِي الإنسان حالاً كل ما عاناه.

ـ هذه النكسات هي فترات هامة جداً لا تقل في أهميتها وفاعليتها عن أية مرحلة إيجابية أخرى، لأن أثناءها تجوز النفس مخاض الموت الحقيقي الذي يؤهلها للميلاد الروحاني والدخول في نور لا يوصف.